البـــاب الخامس

في سرد جملة من أخلاقه السنية وأحواله الزكية المرضية التي انفرد بها في دهره ولم نرها مجموعة في غيره ولا سمعنا بها عن أحد من أهل عصره لا من الموصوفين بالولاية والمشار اليهم بالخصوصية ولا من المشهورين بالمشيخة ورسوخ القدم في التسليك والتربية فضلا عن غيرهم من أهل العلم الظاهر مع اجتماعنا بكثير من شيوخ المغرب والمشرق ووقوفنا على أخبار جل من لم نره منهم من طريق أصحابهم وكتب تراجمهم وأخبارهم بل لم نر أخبار الشيخ رضي الله عنه مجموعة إلا في السيرة النبوية وتراجم كبار أفراد الأمة المحمدية وكمل رجالها من السلف الصالح والخلف الناجح رضي الله عنهم وعنا بهم وسلك بنا بفضله مناهجهم وحشرنا في زمرتهم آمين .

فصـــــل

فمن ذلك شدة تعظيمه ومحبته واحترامه للشيوخ الذين أخذ عنهم ولو دروساً قليلة من العلم فكان يبالغ في الأدب معهم ولايتقدم أمامهم في شيء من المسائل ولا يظهر علمه بحضرهم وإن كان أعلم منهم ولا يجادلهم ولا يناظرهم في شيء إلا على سبيل الندرة مع كمال الأدب والاحترام .

وكان يشد الرحلة من طنجة الى فاس في مدة ثمانية أيام لزيارة شيوخه ، ولما توجه الى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة شد الرحلة منها إلى الشام لزيارة شيخه سيدي محمد بن جعفر الكتاني رضي الله عنه . وكان وقتئذ ببيروت قبيل نزوله إلى المغرب ، فلما وصل إلى الباب واستأذن خرج الشيخ لمقابلته فلما وقع بصره عليه انكب على رجليه يقبلها والشيخ يحاول منعه

من ذلك وهما فى الشارع خارج الدار ومكث عنده ثلاثة أيام طلب منه فيها ان يذهب لزيارة الامام الأوزاعى ، فقال له : والله لو كان حياً ماذهبت إليه لأنى قصدت زيارتك فلا أزور أحداً معك . وكان لا يتكلم فى مجلسه كأنه لا يعلم شيئا من العلم أصلا . وكذلك كان حاله مع غيره .

وكان شديد التعظيم والاحترام لحملة العلم ولو كانوا حساده وأعداءه الذين بالغوا فى إذايته والمجاهرة بعداوته . وكان للأذكياء والنبغاء منهم أشد احتراماً ومحبة وإكراما ينوه بقدرهم ويشيد بذكرهم وينشر فضلهم بين أقرانهم . وكان لا يأتى اليه أحد من أهل العلم إلا وينهض لمقابلته بمزيد فرح وسرور ويقضى حوائجه بعناية تامة ويكسوه إن كان محتاجاً ويتحفه بتحفة من كتاب ونحوه ويصله بالمال إن كان من الفقراء المحتاجين ويبالغ فى الوصاية باكرامه والبر به من هو مكلف بالضيوف فى زاويته إن كان من الغرباء الوافدين عليه وهم الأكثرون لأن طنجة قليل بها أهل العلم لا سيما إذا سبق لأحد منهم إذاية فى جنابه أو كان يتظاهر بعداوته ويتكلم فيه بما لا يليق فى غيبته فانه يقربه ويدنيه ويكرمه بما لا يكرم به أحب الناس اليه . فمنهم من ينجع ذلك فيه لسابق عناية من الله به فتنقلب عداوته محبة وإذايته براً واعتقاداً . ومنهم من يغلب عليه طبعه اللئيم فيصر على ما كان عليه ، وربما خالف ظاهره باطنه . وقد بالغ بعض القضاة فى عداوة الشيخ إرضاء للفرنسيين وتقرباً اليهم إلى أن مرض مرضا أعيى الأطباء دواؤه وايس معه من العلاج بل والحياة . فأرسل الى الشيخ يقول : قد عجز الأطباء وانقطع الرجاء ولم يبق إلا الالتجاء الى الله تعالى وأنتم أبواب الله فعالجه الشيخ بأدوية وصفها له فشفاه الله فى الحال وبعد قيامه استدعاه الشيخ وعمل له وليمة فاخرة .

وجاء بعد انتقاله قاض آخر فأظهر من العداوة للشيخ إرضاء للفرنسيين

أشد مما كان يظهره الأول ودام على ذلك مدة إلى أن اجتمع بالشيخ مرة فلاطفه وأكرمه فانقلبت عداوته محبة وتلمذ للشيخ وصار لا يصدر إلا عن رأيه وإذنه في غالب مهامه إلى أن مات .

وقدوفد بعض المدرسين إلى طنجة واتخذها داراً وشرع في التدريس وتظاهر أيما بالعداوة الشديدة للشيخ حسداً منه وبغضا كما هى عادة جل طلبة الوقت وصار يعرض بالشيخ فى دروسه ومجالسه واشتهرت إذايته بين الناس كافة لكثرة ما كان يطلق لسانه فى الشيخ رضى الله عنه الى أن نزل به ما اضطره إلى القدوم إلى الشيخ والتعلق به كما هى عادة الله مع غالب أعدائه فأكرمه وبالغ فى ذلك وأعطاه كتباً جليلة فتلمذ له وأخذ عنه الطريق وصار يلازم مجلسه ويستفيد منه مدة إقامته بطنجة . ثم لما رجع إلى بلده صار يتردد منها بقصد زيارة الشيخ واستشارته والاستعانة به فى بعض أوطاره ، وطلب منه أن يلقنه الاسم الاعظم ويأذن له فى علم الحرف والتصرف به ، فأجابه بأن هذا الأمر رفع سره والتصرف المطلق به من سنة عشرين وسيقع الاذن بذلك فى سنة أربع وخمسين فاذا حصل الاذن فانى سأعلمك لتقدم فلما دخلت سنة أربع وخمسين كتب الشيخ اليه يخبره بأن الاذن قد حصل ويقول له : إذا أحببت ذلك فاقدم . قال فشغلنى عن القدوم شأن الوظيفة الحكومية وأشغالها وبقيت أنتهز الفرص وأسوف نفسى باليوم وغد الى أن بلغنى خبر وفاته فحصل من الندم والحسرة مالا يعلمه الا الله تعالى وكم لهؤلاء من نظير .

وكان يحترم حملة القرآن العظيم ، لاسيما حفاظ السبع والمتقنين لعلم القراآت بل كان يتعشق هذا الصنف من الناس ويطير فرحاً عند رؤية واحد منهم ويكرمه بكل ما لديه ويحفظ ترجمته وأخباره ، ويتحدث بها عنه فى غيبته تشويقاً للسامعين الى الاشتغال بحفظ القراءات وعملا بالوارد فى اكرام حملة القرآن ، وربما علل ذلك فى بعض الأحيان بقوله ان هذا العلم كاد ينقطع وقد كان جدنا سيدى الحاج أحمد يتقنه غاية وبلغ فيه رتبة الامامة ، فكان

الواجب علينا الاقتداء به والاعتناء بهذا العلم ، فاذ فاتنا فلنحب أهله ولنعتن بهم .

وكان يبالغ فى إكرام معلم أولاده القرآن ويحترمه احتراماً زائداً وينزله منزلة سامية ويغدق عليه من العطايا مالم يعهد له نظير من غيره ولا ينازعه فى شىء يفعله بأولاده ولو ضربهم الضرب المبرح الخارج عن الحد الشرعى الأدبى ، بل والذى لا يكاد يقبله أكثر الناس فكان لا يكلم المعلم فى ذلك بكلمة ولا يوافق من يريد أن يكلمه من الفقراء ، بل يرد اللوم فى ذلك على الولد ، ويقول لو لا أنه مشتغل باللعب غافل عن حفظ سوره ولوحه لما فعل به الفقيه ذلك مع أنه كان إذا رأى معلما يضرب أولاد الناس بأقل بكثير من ذلك يعظه ويزجره ويذكر له ما ورد فى الظلم والتعدى ، ويحدد له الأدب الجائز شرعاً من عشرة أسواط ونحوها . أما معلم أولاده فلا يسمعه شيئاً من هذا إكراماً له وقياماً بحقوقه وهضما لحقوق نفسه وعياله وحبا فى القرآن العظيم .

وكان يحترم أولاد الشيوخ وحفدتهم ويبالغ فى إكرامهم قياما بحقوق آبائهم وأجدادهم ، فكان إذا قصده واحد منهم يبادر إلى لقائه ويظهر مزيد الفرح والسرور به والاعتناء بشأنه ولو كان غير ظاهر الاستقامة ، ويصله بما لديه ، ويلاطفه ويسأله عن أحوال والده وجده وعن كتبه ومؤلفاته ، وربما كان الشيخ هو المفيد له بترجمة والده وجده وذاكرا له منها مالا علم له به .

وكان يوصى أصحابه وقرابته بمثل ذلك ويقول لايغتر بظاهر حال أولاد أهل الله فانهم كالرماد لا نار فيه ، ومن داسه بقدمه أحرقه . فذرية الأولياء وإن لم يكن لهم من الفضل والصلاح ما كان لآبائهم فان من آذاهم أصيب بعطب غيرة من الله لأسلافهم ، وكذلك كان يذكر فى حق أولاد العلماء ما يحمل على إكرامهم واجتناب إذايتهم واحتقارهم ، هذا كال حاله

رضى الله عنه مع أولاد مطلق العلماء والشيوخ أما أولاد شيوخه هو وحفدتهم فكان إذا ورد عليه واحد منهم يظهر له من الاجلال والتعظيم مالا يوصف بل كان ينزل نفسه منهم منزلة التلميذ من الشيخ .

حدثنى بعض من كان يجالسه قال : حضر شابان من حفدة شيخه سيدى محمد بن جعفر الكتانى من فاس ونزلا عند الشيخ فحضرت معهما ذات يوم وقد أتى بالعشاء فصرنا نأكل والشيخ يحدثنا عن أدب الأكل ومايبنغى أن يقدم ويؤخر من جهة الشرع والطب ويذكر ما يتعلق بذلك من الحكايات فلما أردنا الانصراف قام إلى باب الغرفة وصار يصفف نعال الشريفين ، فقالا له يا سيدى نستشير معك فى الذهاب الى تطوان . فقال لهما النظر لكما فان عزمتما على الجلوس فأنتما فى بيتكما أو على الذهاب فالرأى رأيكما وأما أنا إلا عبد لكما .

وكان لأهل البيت أشد احتراماً وتعظيما ومحبة من كل من تقدم على أى حالة كانوا لا يشترط فيهم صلاحاً ولا علما ولا فضلا ولا تقوى ، ويقول : علينا أن نقوم بواجبهم ونكل أمرهم الى الله تعالى . وكان لحبهم يحب الكتب المؤلفة فى فضلهم ويبحث عنها ويجمعها ويحب من يحبهم ويؤلف فى فضائلهم ويعنف من تصدر منه اذاية لواحد منهم اذا كان من تلامذته وأقاربه ولو أنهم من أهل البيت أيضا صدر ذلك منه مراراً عديدة مع جماعة كثيرة فى وقائع مختلفة .

منها : أن شريفا صدر منه ما يوجب تأديبه من الحكومة التابع لها ففر وجاء الى الشيخ مستجيراً فآواه وأكرمه وأنزله فى منزل مجاور لبيته مع بعض أنجاله وجعله واحداً منهم . فلما طالت عليه المدة واشتاق الى أهله ووطنه ، صار يسعى فى ذلك فاتصل ببعض الجواسيس فأرشده الى أن الطريق التى يمكن رجوعك بها وعفو الحكومة عنك هو التجسس على الشيخ وتقديم أخباره وأسراره اليها ، فأجابه الى ذلك واستصدر له العفو من

obeikandl.com

الحكومة فصار يتردد اليهم وينقل لهم أخباراً يفتريها حتى أدى به الطيش إلى أن نسب إلى الشيخ أمراً عظيما فى السياسة . ثم جاء اليه يريد أن يحتال عليه فى الموافقة على أمر يحقق له دعواه وكذبه على الحكومة ففطن له الشيخ وصار يلاطفه ويعده ويمنيه مع إكرامه وبره المستمر معه . فلما صدر منه هذا الأمر العظيم . وكان قد سبق منه أمور كثيرة هى أخف من هذا دخل بعض الفقراء على الشيخ متضجرا من أفعال ذلك الشريف طالبا منه الاذن فى طرده وأمره بعدم الوصول اليه . فقام الشيخ فى وجهه وغضب من قوله ، وصار يقول له : ماذا نفعل مع جده صلى الله عليه وسلم أيتصور فى ذهنكم أننا نؤذى شريفا ونطرده من بابنا ولو فعل بنا من الاذاية ما فعل ، وهل رأيتم إذايته وصلت الينا ولحقنا من ضررها شىء ، فلم يمكن ذلك الفقير إلا ان يستسمح الشيخ مما صدر منه فى حق ذلك الشريف وينصرف .

وكان بعض الأشراف يلازم مجلسه سنين عديدة ويتناول الطعام معه فى أكثر الأيام ويكثر من سؤاله عن المسائل العلمية والتصوفية فاطلع منه يوما على سر يناقض مقصود الحكومة فأفشاه اليها ليتوصل بذلك الى المال أو إلى وظيفة وحصل من ذلك الافشاء فتن عظيمة دامت أكثر من عشر سنين ، ولا يزال أثرها ساريا إلى اليوم فما زاده ذلك الا محبة فيه وتقريبا له وسعى له بعد ذلك فى وظيفة يرتزق منها ودام معه على البر والاكرام والمحبة الأكيدة إلى الختام .

وهذا كان دأبه وديدنه مع أولاده وقرابته يربيهم دائما على محبة الأشراف وتعظيمهم وإجلالهم وعدم مقابلتهم بمثل ما يبدو منهم من الاساءة ووجوب تحمل ذلك منهم ويذكر الأحاديث الواردة بذلك وحكايات الصالحين فى تعظيمهم وما نالوه من الفضل عند الله تعالى وعظيم المنزلة عنده بسبب ذلك حتى كان الصغير من أولاده وخدمه يعرف من قدر اهل البيت

مالا يعرفه الفقيه العالم المدرس وكذلك فى حق الفقراء المنتسبين إلى أهل الله لأنه كان يربيهم على ذلك بحاله وقاله وعمله ، لا بمجرد لسانه كما كان يحقر فى أعينهم الدنيا وأهلها و يعرفهم أن محبتها والنظر اليها والى أهلها بعين الرغبة والاجلال يوجب المقت من الله تعالى والبعد من رحمته ويظلم القلب ويبعده من حضرة الله ويطمس عن بصيرته عن التطلع إلى العلوم والانتفاع بما يسمعه المرء من القرآن والسنة والموعظة ، ويقول يكفيكم أن الأغنياء لو بلغوا ما بلغوا فى الغنى لا يصلون إلى درجة اليهود والنصارى فهم أغنى الناس على الاطلاق ، فلو كانت الدنيا ترفع من قدر صاحبها لرفعت من قدر اليهود والنصارى وجرتهم إلى الخير وما ينفعهم فى آخرتهم فى أمثال هذا مما كان رضى الله عنه يربى به أولاده وأقاربه ويذكره فى كل مناسبة حتى نشأ أولاده والحمد لله على هذا الخلق العجيب الغريب بين أهل الوقت فلا يرون لأحد من أهل الدنيا والمراتب السامية فى الغنى والرياسة قدراً ولا مزية من جهة غناه ورتبته ؛ بل ينقبضون عنه وينكمشون ولا ينبسطون إلا عند رؤية أهل الفضل والدين والصلاح والعلم والعمل لا سيما اهل البيت منهم والذاكرين المنتسبين إلى أهل الله .

فصــــل

وكان يربى أولاده من صغرهم على الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة وتعلق القلب بالله وبمحبته والاقبال على العلم والعمل وترك ما فيه شهوات النفس وحظوظها ، ولا يسمح لهم بالتشبه بأهل الدنيا وأولاد الأغنياء فى الملابس لا فى جودة الثياب ولا فى كيفية اللباس ، بل يلبسون ما توسط من الثياب وعلى الكيفية التى يلبسها الفقراء ولا يسمح لأحد ان يلبس فى رجليه الشرابات أو التقاشير ولا غيرها من ملابس الترف أصلا . واذا رأى على واحد منهم شيئا من ذلك غضب غضبا لا مزيد عليه ، بل لو رآه يزنى

ما زاد غضبه على ذلك ويأخذ منه ذلك الثوب فيقطعه او يتصدق به فى الحال ويقول لا تطمعوا فى الترفه والتدخل فى مداخل الدنيا ما دمنا بالحياة . فنحن لو أردنا ان نلبسكم الذهب والفضة ، وكان ذلك جائزاً لما غلبنا ذلك والحمد لله ، ولكن موتكم والبكاء عليكم خير لنا من البكاء منكم ورؤيتكم فى حالة لا ترضى الله والرسول وتخالف طريقتنا وطريقة سلفنا الصالح .

ومن أغرب أحوال الشيخ رضى الله عنه مع أولاده أنه كان يقدم غيرهم فى المحبة والاكرام وجميع المصالح عليهم بما لا أظنه يوجد فى غيره بل أكاد أجزم بأنه انفرد به فى الدنيا من مشرق الشمس إلى مغربها بحكم ما فطر الله عليه طبيعة المخلوق من تغلب حب الأولاد على القلب وفرط ميله إليهم لا سيما إذا كانوا بارين مطيعين سائرين فيما يحبه الوالد ويرضاه كما كان أنجال الشيخ معه ومع ذلك فكان لا تتعارض مصلحتهم أو واحد منهم مع مصلحة غيرهم من أقاربه وأصحابه وفقرائه بل وأعدائه الاقدم مصلحة ذلك الغير عليهم ولا جاء أحد صديقاً كان أو عدواً يشتكى أحد أولاده فى شيء حقاً كان أو باطلا الاقام وقعد انتصارا لذلك الشاكى وأهان ولده أمامه ليشفى منه غيظه مع علمه غالباً بأن الحق مع ولده لا مع ذلك الغير وبالجملة فما رأيته فى مدة ثلاثين سنة ولا سمعت عنه يوما أنه انتصر لأحد من أولاده فى شيء أصلا حتى من كبر منهم وصار فى مصاف الرجال بل والعلماء ونبغاء الطلبة بل غاية ما كان يفعله أنه بعد أن يهينهم ويوبخهم التوبيخ البالغ الذى لا يوبخه أحد من أهل الدنيا عبده فضلا عن ولده أمام أحد من الأوباش والغوغاء فاذا ذهب ذلك المشتكى وانفرد بالولد يصير يلاطفه ويقول نحن ما فعلنا بك ذلك بغضاً وإهانة إنما فعلناه امتثالا لأمر الله تعالى وقياماً بحقوق الأخوة وارادة أن تكون كاملا من أكابر الرجال وأفراد الأمة فانه لا يسامح فى حقه ويصبر على هضم نفسه امتثالا لأمر الله وتخلقا بالأخلاق المحمدية إلا أكابر الرجال

والناس اليوم لا يرون لأحد حقا عليهم وإنما يرون حقوقهم على الغير فعلينا أن نقوم بحقوقهم ولا نطمع فى أن أحدا منهم يقوم بحقنا وإذا ساويناهم فى أخلاقهم واضاعتهم للسنة المحمدية وعدم العمل بها فمن يقوم بها وأى مزية لنا من بينهم ونحن ماشرفنا الله تعالى إلا بالعمل بالعلم والاقتداء بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصبروا ولا تضجروا من هذا فعما قريب تجنون ثمرته وهم سيجنون ثمرة أعمالهم وإن كنت على الحق فسيرفع الله قدرك ويزيدك بهذا شرفا ويمدك فى باطنك بأنوار ومعارف وسترى بعينك ماذا سينزل بعدوك إذا أنت امتثلت أمر الله فيه إذ عصاه هو سبحانه وتعالى فيك ولم يقم بحقوقك التى أوجبها الله عليه فى أمثال هذه المواعظ يسلى بها الولد بعد إهانته وسلبه حقوقه وتمكين عدوه منها أما كونه ينتصر له أو يرد على من نسب إليه شيئا من القبائح والجرائم المحقق كذبها فذلك من المستحيل عنده ، ثم ليس هذا مع البعيد فقط بل ومع الاماء والخدم داخل الدار أيضاً فما علم أنه رجح ولداً له على خادم أو خادمة أصلا فقد كانت عنده أمة أورثها فرط حلمه ومساواته للخدم بأهله وعياله أنفة وكبرا وعظمة لا توجد إلا فى أبناء الأمراء والوزراء فكانت تأنف أن تطيع أوامر أحد من أولاده وزوجاته بل وحتى الشيخ نفسه فيما لا يوافق هواها فكانت بخلقها هذا تثير غضب أولاده فى بعض الأحيان فربما أسمعها بعضهم كلمة قبيحة فاذا أوصلت ذلك إلى الشيخ انتصر لها وجاوز الحد كأنه هو العبد وهى ابنته مع أنه كان كثيرا ما يتضجر من خلقها وكبريائها وعظمتها ثم يقول أمرنا الله تعالى بتحمل أخلاق السفلة وعدم معاملتهم بالمثل ونحن نرى أن لو طردناها لما وجدت من يتحمل خلقها ويقبلها على كبريائها وعظمتها وهى لالوم عليها فى طبعها لأنها جاهلة وإنما اللوم على من يدعى العلم والطريق واتباع السنة فهو الذى يجب عليه تحمل خلقها .

وكان بعض أهل الأخلاق السيئة والطباع الذميمة من أتباعه يؤذى الفقراء

غاية ويجترىء عليهم بيده فلا يكاد يمر عليه شهر بدون أن يؤذى أحدا من الفقراء ، ثم زاده حلم الشيخ وكرم أخلاقه غرورا إلى أن ضرب يوما بعض أولاده النبغاء الأذكياء ضربة منكرة ثم لم يكتف بذلك حتى صار إلى الشيخ يشتكيه أيضاً فبدلا من أن ينتصر الشيخ لولده وبخه غاية أمامه وأمره أن يقبل رجله ويستسمحه فصار يقبل رجله أمام الشيخ رضى الله عنه .

وكان له تلميذ آخر اليه المنتهى فى سوء الخلق والظلم والفسق والجور والكبرياء والعظمة والخداع والغش والرياء والتصنع وسوء الظن والجهل بالله تعالى والغرور بالنفس والحقد والحسد واذاية الفقراء والأشراف والعلماء والصغار والكبار وأهل الحواضر والبوادى وأهل الفضل والدين لا سيما من قرابة الشيخ وأنجاله فانه يأتى إليهم من أنواع الاذاية والاهانة بما لا يتسع لشرحه إلا مجلد حافل وبما لا أظن أنه يخرج معه من الدنيا سالما أو يختم له بخير لفرط اذايته بحيث قل عنه حجاج الفقراء ولا لوم اللهم إلا أن يتداركه الله برحمته فيتوب توبة تكون سبباً لأن يرضى الله عنه ذلك الجم الغفير من الأشراف والفقراء والفضلاء فيسامحوه فيما أتاه إليهم وإلا فلا بد من القصاص .

وكان الشيخ رضى الله عنه لفرط حماقة هذا الرجل وكثرة أذايته للضيوف والزائرين والفقراء لايكاد يمر عليه يوم أو أسبوع بدون شكاية ترد به وشكاية منه بمن يظلمهم ويؤذيهم لانه لفرط حلم الشيخ وكرم أخلاقه وفرط حماقته هو واغتراره وقلة حيائه وصفاقة وجهه كان يؤذى ولد الشيخ ويسمعه من السب والاهانة أمام الناس ما هو لائق بدينه وسفالة أخلاقه أو ابن أخى الشيخ او صهره او ابن عمه العالم الفاضل المدرس او الأشيب الذاكر المنتسب ثم بعدان يقضى وطره من عرضه واهانته يسبق إلى الشيخ بالشكاية لاعتقاده ان الله اباح له عرض المسلمين والاشراف والفقراء من أصحاب ابن الصديق بل وظهورهم وأموالهم لفرط اغتراره بنفسه وجهله بالله

تعالى وبدينه فكان الشيخ رضى الله عنه يعقد المجالس المتعددة بين أصحابه وقرابته لأمره إياهم بطاعة هذا الجبار العنيد والكون تحت أمره ونهيه مع المبالغة فى تعظيمه واطرائه والثناء عليه فلا يزيده ذلك إلا عتواً واستكباراً وغلظة وفظاظة وجرأة على الله وعلى عباده الصالحين استغلالا لجاه الشيخ رضى الله عنه ومكانته ولولا هو لما شعر بوجوده أحد من أضعف ضعفاء أولئك الأفاضل ولما خطر بباله هو أن يجترىء على واحد منهم كما هو حاله اليوم فضلا عن ذلك الجمع العظيم وهكذا استمر الشيخ رضى الله عنه يقاسى معه الشدائد مع المبالغة فى إكرامه وتعظيمه إلى أن صرفه الله عنه وشغله بدنياه وأراح الفقراء والزاوية وعمارها وزوارها من ظلمه وجوره وفساده نسأل الله العافية ولو لم يدل على عظمة أخلاق الشيخ رضى الله عنه وحلمه المفرط إلا صبره على إذاية هذا الرجل لكفى ذلك دليلا على انفراده فى الدنيا من مشرق الشمس إلى مغربها فوالله لو شئت أن أشرح إذاية هذا الرجل للشيخ فى ذريته وأهله وقرابته وضيوفه وزواره وأصحابه ثم فى نفسه وما نسبه اليه أخيراً وما قاله فيه مع عظيم اكرام الشيخ له ومراساته إياه لذكرت من ذلك ما يتعجب منه المتعجبون ويستغرب من سماعه السامعون ويجزم القارىء معه بأن الشيخ لاثانى له فى الدنيا فى عصره بل ولا قبله بكثير فى هذه الاخلاق فلقد حكى العارف الشعرانى بعض البعض من عشر هذا عن القطب امولانا عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه ثم قال وهذا خلق غريب لا يوجد لا عند أفراد اه مع أنه والله ما ذكر عشر عشر معشار ما رأيناه من الشيخ رضى الله عنه فى هذا الباب ولقد رأيت أحد أفراد هذه الأمة المحمدية فى عصرنا ممن لم تر عيناى بعد الشيخ رضى الله عنه مثله فكان يميل إلى أولاده بحكم العاطفة ويقدمهم على غيرهم ولا يقبل كلمة سوء من أحد فيهم حتى إنه صدر مرة من بعض أكابر أصدقائه ومحبيه الذين كانوا يخدمونه وينفقون

عليه ويواسونه المدة الطويلة أن قابل بعض أولاده بكلام فيه غلظة حتى أبكاه فدخل على والده وهو يبكى فانفعل والده لذلك انفعالا كبيراً وقابل ذلك المحب فأغلظ له جداً حتى إنه لما خرج من عنده حلف بالطلاق الثلاث أنه لا يبيت فى بلد فيه الشيخ وسافر فى الحال وكان ذلك آخر اجتماع بينهما مع أن الرجل من أكابر الأعيان الطاعنين فى السن وأعاظم المحبين ولم يصدر منه إلا كلام قاله بشدة فى حالة غيظ فكيف بمن يصر على إذاية الأنجال وجميع الأقارب أزيد من خمس عشرة سنة بما لا يقبله المرء فى أصحابه وأحبابه فكيف به فى أنجاله وأقاربه من نسبة جميع الجرائم والطامات حتى فى العقائد والديانات والاهانة باليد واللسان والسعى فى الاذاية والعداوة واشاعة الامور القبيحة بالزور والبهتان لكى يتوصل بذلك الى أن يخاف الشيخ فى مكانه حيث أن أولاده بالمثابة المذكورة ويعلم الشيخ منه ذلك وتبلغه إذايته إياهم صباح مساء طول السنين المذكورة ومع ذلك يعقد المجالس الحافلة أمام أعين المئين من الناس يعظم فيها من قدر هذا الجبار العنيد ويرفع من شأن هذا الجاهل المجرم بما لو أنفق مهجته ليشهد له به من هو دون الشيخ بمراحل لم يصل اليه فكيف بالشيخ أمام أولئك الجم الغفير من الناس تحقيقاً لمطامعه وإجابة لرغبته التى يؤذى أولاده من أجل الحصول عليها فلذلك قلنا إن هذا مما انفرد به الشيخ رضى الله عنه فى الدنيا بأسرها والحمد لله رب العالمين .

فصـــــل

وكان رضى الله عنه وصالا لرحمه الدينى والطينى أما الدينى فقد ذكرنا صنيعه بأشياخه وأنجالهم وحفدتهم واما رحمه الطينى فكان لا ينسى أحداً مع كثرتهم بل يواسى الجميع ويكسوهم كل سنة ويدفع أصدقة من يريد التزوج منهم حتى تترتب عليه فى ذلك ديون عظيمة كل سنة وينفعهم بالمال

والجاه والتوسط والشفاعات عند الحكام مع كون الكثير منهم يؤذونه بأنواع من الاذايات وربما جاءه الواحد منهم فلم يجد ما يعطيه فأخذ من أولاده وأعطاه وكان يحض دائماً على صلة الرحم وبر الوالدين ويبالغ فى ذلك ولا يرخص لاحد فى مخالفة من هو أكبر منه من العائلة فضلا عن إخوانه فضلاعن والديه وهو الذى أمرنى بتأليف مطالع البدور فى بر الوالدين لقضايا صدرت من أقوام ووقع لبعض قرابته ان ادعت عليه امرأته العجوز البالغة من العمر ستين سنة عقب طلاقه إياها انها ولدت منه ولداً ذكراً لايدرى من أين اتت به فلما ذهبت القابلة والنسوة لم يجدن عليها أثر الولادة والنفاس اصلا والولد موضوع بجنبها فأراد الرجل ان يلاعنها فامتنع اخوه وكان اكبر منه وقال له ان اللعان فيه بهدلة لا نرضى بها فأراد ان يخالفه ويلاعن لتحققه بافتراء المرأة عليه من وجوه متعددة فلما جاء الى الشيخ يستشيره قال له حيث إن اخاك أكبر منك قد أمرك بالتخلى عنه فامتثل امر الله ولا تخالف إشارة اخيك .

فصـــــل

كان الشيخ رضى الله عنه لايخرج إلى السوق ولا يمر فى الشوارع العامرة بالناس والدكاكين بل اذا خرج يوما لزيارة أخ أو إجابة دعوة أو إلقاء درس يختار الشوارع الخالية ولوكانت بعيدة فراراً من الشهرة وتعظيم الناس وسلامهم عليه وكان يسرع فى المشى ويمشى قصداً لا يلتفت لرؤية من عن يمين الطريق وشمالها حتى كان كثير من الناس إذا رآه مقبلا لا يتهيأ له الخروج من دكانه للسلام عليه حتى يجده قد فاته وبعد عنه .

وكان لا يتولى شراء شىء بنفسه من أمتعة الدنيا وحاجياتها كيفما كانت الا الكتب وكان لا يماكس فيها ولا فى غيرها إذا اشتراه على سبيل الندرة وكان التجار يعرفون منه ذلك فيطلبون فى الكتب أضعاف ثمنها فان وافقه

الكتاب أخذه وإلا رده ولا ينقص من الثمن وكذلك إذا كان حاضراً وقت شراء شيء له لا يدع أحد يما كس عنه بل يقول للوكيل ادفع الثمن وهكذا كان حاله فى البيع ايضاً فانه إذا توقف على ثمن شيء باعه بما اعطى فيه ولو كان ربع عشر ثمنه وكم كتاب ثمنه أربعون ريالا واشتراه هو بأكثر من ذلك فأتاه فيه سمسار الكتب بأربعة وخمسة فباعه كلسان العرب وفتح البارى وشرح عليش على خليل وأمثالها وكم كتاب اشتراه بعشرين فأتاه فيه السمسار باثنين وقد باع بهذه الطريق مئات المجلدات حيث استدان مرة نحو الف ريال من رجل فجاء يطلبه منه قبل أن يتيسر فأخرج مكتبته وباعها فما أتاه السمسار فى كتاب بربع ثمنه قط بل على النسبة التى ذكرناها من نصف العشر وربعه وهو يعلم ذلك ويعلم فساد سيرة ذلك السمسار ومايصرف فيه تلك الأموال التى يسرقها فى البيع ولكنه لفرط حيائه وحقارة الدنيا فى نظره لا يتوقف فى شيء من ذلك وأين هذا من علماء الوقت الأغنياء الذين يمكثون الزمن الطويل يما كسون على القرش ونصفه وربما وعظوا من رأوه لا يما كس ويستدلون بحديث ينسبونه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ماكسوا السوقة وهو حديث باطل موضوع ويعرضون عن السنة الصحيحة الواردة بمدح السهولة فى البيع والشراء والقضاء والاقتضاء والتخلق بأخلاق كمل الرجال .

وكان لا يمد رجليه لا وحده ولا مع أهله لا فى حالة المرض ولا فى حالة الصحة وربما مد إحداهما قليلا إذا تعب بحيث لا يخرج بمدها عن هيأة المتربع وإنما كان يكثر من جلوس القرفصاء لا سيما عند المطالعة والكتابة وما رأيته طول عمرى ماداً رجليه ولا مستلقياً على قفاه ولا رافعاً إحدى رجليه على الاخرى فى جميع أطوار حياته وذلك لعظيم مروءته وكمال أدبه مع الله تعالى وتمام مراقبته .

وكان اذا غاب عنه أحد من جلاسه تفقده بالسؤال عنه وإذا علم بمرضه

تعاهده بالسؤال وارسال من ينوب عنه فى العيادة مع وصف الأدوية ولربما أرسل فى اليوم الواحد مرتين وثلاثاً حتى كأن المريض من أعز أولاده كل ذلك قياما بحقوق الأخوة فى الله وآداب الصحبة والمجالسة فيه .

وكان إذا قصده أحد للسلام عليه لايعطيه يده يقبلها إلا إذا انحنى هو على رأسه يقبله أو كتفه وما رأيته أعطى أحداً يده يقبلها وهو لايتحرك ولا ينحنى عليه أصلا إلا مع أولاده الصغار حتى كنا نتعجب غاية ممن نراه يمد يده من العلماء والشيوخ لمن يريد تقبيلها من غير تحرك ولا تقبيل منهم أيضاً ليد المسلم أو رأسه ظناً منا أن ذلك هو حال جميع العلماء حتى علمنا أن ذلك مما انفرد هو به لكمال أدبه مع الله ومع خلقه وتمام تواضعه مع الناس .

فصل

وكان مفرد زمانه فى قضاء حوائج المسلمين والسعى فى مصالحهم لا يكاد يمر عليه يوم دون أن يجرى الحق سبحانه وتعالى على يديه فيه قضاء حاجة أو حوائج على اختلاف المراتب والطبقات حتى كأن بيته من أعظم الادارات المقصودة لذلك فمنهم من يطلب المال والمعونة ومن يطلب الدواء أو التوسط فى دخول المستشفى مجاناً أو السفر كذلك أو إخراج ورقة الجواز إذا كان ممنوعاً أو متعسراً على مثله أو الشفاعة عند الحكام فى قضية أو عند القاضى أو عند بعض التجار أو طلب وظيفة أو إسقاط دين أو تظلم من ظالم أو نحو هذا مما كان يمضى غالب يومه فى قضائه إما بنفسه أو بارسال رسل ومكاتب إلى من يتعلق ذلك به من الحكام داخل البلد وخارجها إذ ما كان أحد يقع فى ورطة سواء من أصحابه أو من غيرهم إلا ويقصده لفك معضلته وتفريج كربته وكان يحث غيره على ذلك وينوه به غاية ويقول إن المجاهدة ومكابدة الأعمال الشاقة التى كان عليها السلف الصالح فى الطريق قد انقرض وقتها لفساد الزمان وانقلاب طبائع أهله ولم يبق اليوم إلا المحبة والتقرب إلى الله تعالى بالسعى فى قضاء حوائج

المسلمين وإغاثة الملهوفين فان ذلك مما يرحم الله به العبد ويأخذ بيده كما أخذ هو بيد أخيه ومن أخذ الله بيده فقد أوصله الى كل خير

وكان فى بذل الجاه عند الحكام المسلمين والنصارى فى الشفاعات لايجارى ولا يبارى ولا يستطيع أحد من أهل العصر أن يدرك له فيه غباراً فان الخلق كانت تتوارد عليه أفواجاً أفواجاً فيرسل الرسل ويكتب المكاتب بخطه إلى الجهات البعيدة إلى القاضى والباشا والوزير والمندوب والحاكم والمراقب بالمدن والقبائل والمنطقتين السلطانية والخليفية وحكام الدولتين الفرنسية والاسبانية وعند سفراء الدول الأخرى أيضاً إن تعلقت المسألة بواحد منهم وربما كتب فى اليوم عدة مكاتب وربما أرسل الى الحاكم الواحد عدة مكاتب أيضاً فى القضية الواحدة بحسب رغبات أهلها لايضجر من ذلك ولا يمل ولا يرد طلب طالب فيه ولا مسألة سائل سواء قضيت تلك المسألة وقبلت الشفاعة أم لا وربما يبلغه عن الحاكم كلام قبيح قاله فى حقه وفعل فعله مع بعض أصحابه ثم إذا جاء اليه أحد يطلب الشفاعة عند ذلك الحاكم أيضاً لايعتذر له بأنه عدوله أو بأنه لايقضى مايطلبه منه بل يسارع إلى إجابة طلبه وإرسال رسول من جهته أو كتابة كتاب اليه فلا يحصى كم مسجون خرج من السجن بشفاعته بعد أن حكم عليه بالسنين الطويلة ومنهم جماعة كبيرة ممن حكم عليهم بالثلاثين والأربعين لعظم جرائمهم السياسية فيخرجون بعد السنة ومنهم من لم يكمل السنة ولا يحصى كم وظف فى الوظائف المختلفة من قضاء وولاية على قبيلة أو قرية وكتابة وتدريس وعدالة وغير ذلك مما لايكاد يدخل تحت الحصر ولا رأينا شرقاً وغرباً من الظاهرين فى الوقت بالفضل والرياسة والجاه من يستطيع أن يتحمل عشر معشار ذلك ولعلم الناس بهذا أقبلوا على الشيخ رضى الله عنه

وكان لايدعو أحداً من الناس باسمه المجرد بدون سيادة ولا يذكره كذلك فى غيبته ولا يقتصر على ماجرى به عرف الناس من لفظ السى بحذف الدال

بل يذكر لفظ السيادة بكامل حروفه للشريف والمشروف والعالم والجاهل وكان كثيراً مايخاطب الرجل بمولاى زيادة فى الاكرام والاحترام امتثالا لأمر الله تعالى بأن تقول للناس حسناً .

وكان لا يمزح ويكره المزاح وينهى عنه حتى صغار الأولاد ويتعجب من أهل العلم الذين يمزحون لاسيا فى دروسهم فانه لما توجه الى القاهرة سنة خمس وأربعين وكان يسمع عن بعض الظاهرين فيها بالدعوة الى العمل بالسنة والقيام بها وبلغه أنه يقرأ سنن أبى داود ذهب لحضور مجلسه والتبرك به فلما جلس لم يلبث إلا لحظة واذا بالشيخ المربى صاحب الأتباع الكثيرين الداعى إلى السنة فيما يزعم شرع يحكى العروس ليلة دخولها ويقلد فعلها وصوتها وصوت النسوة اللاتى يكن معها وهو بلحيته البيضاء فوق الكرسى يقرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمايم واللحى ملتفة حوله . فقام الشيخ وخرج مندهشاً مما لم يره ولاخطر له على بال أن يوجد مثله . وكان يحكى ذلك على سبيل التعجب طول حياته ويضيف اليه ماهو قريب منه مما رآه من بعض علماء القاهرة أيضاً

وسمعت شيخنا الامام أبا عبد الله سيدى محمد بن جعفر الكتانى يقول كنت مرة أذكر الله تعالى فرأيت كأن شخصاً لطيفاً وقف بين يدى فقلت ماالذى قطع فلاناً عن الله وسميت بعض من كان فى الوقت ينسب الى الصلاح ويحدث عن نفسه بأشياء فقال كثرة مزاحه مع الناس قال وقلت له ذلك باللسان الذى لم يفتر عن الذكر يعنى أنه نطق بالكلام المذكور فى حال نطقه بالذكر معاً فكان رضى الله عنه يحكى أن هذا من الكرامات التى وقعت له

وكان الشيخ رضى الله عنه ينزل الناس على حسب منازلهم التى أنزلهم الله بها ويعامل كل واحد منهم ظاهراً فى المجاملة والبر والاكرام على قدر منزلته فلايساوى بين الشريف والعامى ولا بين العالم والجاهل ولا بين أهل النسبة والفقراء المتجردين لذكر الله وغيرهم من عوام الناس امتثالا للسنة الواردة بذلك وقياما

بالتدبير الذى جعله الله بين عباده فقد دبر لهم الأحوال من غنى وفقر وعز وذل ورفعة وضعة وعلم وجهل وقوة وضعف لتقوم بذلك حكمته فيهم فالعاقل عن الله يعامل أهل وقته على مقتضى تدبير الله لهم فاذا لم ينزل الرجل منزلته التى أنزله الله بها فقد استهان به وجفاه وترك موافقة الله تعالى فى تدبيره وكان ما أفسد أكثر مما أصلح لأنه عكس تدبير الله على مقتضى الحكمة البالغة فالغنى اذا أقصيت مجلسه أو حقرت منزلته حقد عليك وتظاهر بعداوتك وأطلق لسانه فيك لان الله تعالى لم يعوده ذلك بما خوله من نعمه وأسبغ عليه من فضله واذا عاملت الولاة والحكام بمعاملة الرعية فقد تعرضت لما هو أكثر فساداً وأعظم شراً لاعتياده العزة والرفعة ونفوذ الكلمة والاقتدار على التصرف فى الغير فلا يقبل المساواة بمن ولاه الله الحكم عليهم وأعطاه نفوذ الأمر فيهم ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم أنزلوا الناس منازلهم كما فى سنن أبى داود من حديث عائشة رضى الله عنها وفى مقدمة صحيح مسلم عنها قالت أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم

وورد من طرق متعددة تزيد على العشرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وفى رواية اذا أتاكم شريف قوم قال الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربى رضى الله عنه يدخل فيه كل كريم لقوم من سائر الأديان لا من المسلمين فقط لعموم اللفظ وشمول المعنى وتحقق الحكمة والعلة فى الجميع

وكثير من الجهال يظن أن الصلاح والتقوى فى التسوية بين الشريف والمشروف وربما يجعل ذلك ميزاناً يحكم به بالفضل وغيره فيقول لو كان فلان فاضلا أو صالحا لسوى بين عباد الله فى الرتبة والبر والاكرام واذ لم يفعل ذلك فهو ذو وجوه وأغراض وذلك من فرط جهلهم ووجود حقد فى بواطنهم وتطلع الى منازل ورتب لم يجعلهم الله من أهلها ولم يقض لهم بشىء منها فهم شيوعية الجاه والمنزلة يريدون أن يقلبوا حكمة الله فى خلقه وسنته بين عباده

والمقصود أن الشيخ رضى الله عنه كان ينزل الناس منازلهم كما امره الله تعالى وذلك بالنسبة الى الظاهر اما مايتعلق بالباطن والمحبة القلبية فكان عجباً لايفهمه الا من يفهم ما لأولياء الله تعالى من الكشف والنظر بعين البصيرة والسير مع مراد الله تعالى من خلقه فى الباطن وحقيقة الأمر لا ماهو ظاهر عليهم فى الحال من الحركات والأعمال فان الشيخ رضى الله عنه كان يحب بعض الأفراد محبة زائدة ويعتنى من شأنهم وقضاء أوطارهم وإجابتهم إلى رغباتهم بمالا يفعله مع غيرهم ويفرح بمقابلتهم وينشط لمجالستهم وهم من أهل التخليط فى الأعمال وتبلغه عنهم تلك الأعمال السيئة والأفعال القبيحة وترد اليه الشكايات المتعددة فلا يزيد على أن يتعجب من ذلك أو يضحك منه ولا يكلم ذلك الشخص ولا يوبخه وربما كلمه بلين ورفق اجابة لرغبة الشاكى فقط ولا ينقص ذلك من قدره عنده ولايصرف وجه عنايته عنه ويأتيه من هو مشهور بالتقوى والصلاح والفضل فيثقل عليه أمره ويقابله ظاهراً بما يجب له ويقضى مآربه ولا يفرح وينشط كما يفرح لغيره وهذا من كشفه رضى الله عنه واطلاعه على المقامات الباطنة

قال سيدى ياقوت العرشى رضى الله عنه ينبغى للفقير ان يعظم الناس بحسب دينهم فى الباطن لا بحسب ثيابهم قال وقد رأيت شيخنا ابا العباس المرسى رضى الله عنه كثيرا ما يكرم بعض العاصين اكثر من بعض المطيعين فقلت له يوما فى ذلك فقال انه يظهر لى من المطيع عز النفس والكبر ومن العاصى ذل النفس والاحتقار فأعامل كل واحد بحسب ما فى باطنه هـ . فحالة الشيخ رضى الله عنه جامعة بين الشريعة والحقيقة وهى اعلى من حالة العارف الشعرانى رضى الله عنه الذى كان ينزل الناس منازلهم بحسب ما هم عليه من ذل النفس ولا يعظم بحسب الظاهر والثياب والضخامة لما فى ذلك من مخالفة الحكمة التى دبرها الله لخلقه وامر بها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

فصـــــل

وكان لا يذهب إلى أحد من أهل الدنيا وأغنيائهم المشاهير ولو ألحوا فى دعوته لا سيما فى أواخر عمـره وكذلك كان لا يذهب إلى الحكام ولا إلى المحاكم بل كان يرسـل فى الشفاعات أصحابه تارة بالمشافهة وأحياناً بالكتابة وربما طلب من الحاكم أن يقدم اليه ليكلمه فى القضية إذا كانت مهمة فلا يتأخر عن ذلك لا سيما حكام النصارى فانهم كانوا يريدون الشرف برؤيتـه والافتخار بالاجتماع به ولم يذهب إلى الحكام بنفسـه إلا مرتين سـافر من طنجة إلى تطوان لمقابلة المندوب السامى فى شأن مصالح المنطقة الغمارية مع أن السبب البـاعث إلى ذلك هو أن طنجة محـل إقامة الشيخ كانت تحت يد الدولة الفرنسية والمراقبـة الدولية والحاكم العام للمنطقة الخليفية بتطوان لا يسمح له بالقدوم إلى طنجة فلذلك اضطر الشيخ أن يشد الرحلة لمقابلته مع عظم مصلحة تلك القبائل كافة .

وكان شديد الكراهة للرياسة ، ولمن يميل اليها ويستجهله غايه ويعد قلبه فارغا من النور والاخلاص فى الأعمال اذ لو كان نور العمل حالا بقلبه لاكسبه حب الخفاء والتواضع والاستكانة لله عز وجل ولعرفه بقدر نفسه ومنزلتها من خالق الله تعالى الذين يريد ان يترأس عليهم وما يدخل على دينه فى ذلك من عظيم الشر والفساد فكان لا يميل الى ما فيـه رائحة تقدم أو رياسـة حتى التقدم للصلاة ، بل كان يقدم لها من حضر غالبا وكذلك اذا خرج لا يترك أحدا من أصحابه يتبعه ويمشى خلفه لاسيما مع التمدد والكثرة بل يقدمهم أمامه اذا كانوا قاصدين جميعا محلا واحدا ومن أجل ذلك كان لا يمر فى الشوارع العامرة لئلا يزدحم الناس للسلام عليه كما قدمناه .

وكان لا يتميز عن العامة فى الملبس ولا ينفرد عنهم بشىء أصلا مما ينفرد به العلماء وأرباب المناصب والوجاهة فلا يلبس الكساء ولا البرنس ولا يركب

البغلة كما هو حال علماء المغرب ووجهائه قبل ظهور العربات ، بل وحال علماء المشرق أيضاً فكان لا يزيد على الجلابة التي يلبسها عامة الناس لا في الأعياد والمواسم ولا في سائر الأيام ولا يوافق على شيء من ذلك لا لجاله أيضاً ولا يتصوران يرى واحداً منهم متميزاً عن عامة الناس في شيء من الأشياء أصلا وذلك كان حال النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح والعلماء العاملين حتى ظهر الفجار من العلماء الذين هم ليسوا على شيء وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فترخصوا في الترف والترفة وتوسعوا في مخالفة الشريعة والسنة محتجين لهوى نفوسهم بالمصالح المرسلة الهادمة للدين منمقين ذلك ومزوقين إياه لالقاء الغبار في أعين العوام حتى لا يحتقروهم ويفسقوهم لمخالفة ظاهر الشريعة ولذلك كانوا شر من تحت أديم السماء قطع الله دابرهم ونصر الدين بهلاكهم والقضاء عليهم آمين .

وكان يكره التشبه بأهل الدنيا في الملبس والمعيشة وفراش البيت وكل ما فيه رفاهية وترفع على الناس فلا يلبس الثياب الرفيعة الجيدة ولا الرقيقة ولا ما فيه خيط واحد من الحرير ولا الثوب المزرر كالقفطان والفرجية ولا ما تفصيله وهياته من شكل لباس المترفين وهياتهم ولا يفعل ذلك بأحد من أولاده وإذا أهدى له أو لأولاده شيء منها تصدق به في الحال ولم يكن يفرش في الغرف والبيوت زرابي وسجاجيد أصلا بل كلها مفروشة بالحصر ومراتب التبن إلا غرفة أو اثنتين فكانتا بمراتب الصوف والحصر ولما ظهر النور الكهربائي امتنع من ادخاله مع حرص الناس عليه في ذلك مدة تزيد على العشر سنين لأنه كان في بداية ظهوره من شأن الأغنياء والمترفين وما أذن بادخاله إلى بيته حتى عم جميع الناس غنيهم وفقيرهم وشريفهم ومشروفهم ولما بنى بيته وكان الواقف على البناء بعض أصحابه فعمل بمقتضى نظره زليجا في الحائط وشبابيك ذات أقواس منمقة فلما سكن بالدار ومرت مدة أمر بقلع تلك الشبابيك وإزالة الزليج من الحيطان حتى صار البيت في شكله كبيوت الفقراء وعامة الناس .

وكان يغضب غضبا شديدا إذا رأى من أحد أولاده ميلا لأبناء الدنيا فى التشبه بهم والسير على مناهجهم لأنه كان لا يرى ذنباً أعظم من حب الدنيا والدخول فى مداخلها والتطلع إلى أهلها ويقول لأولاده افعلوا ما شئتم فانى أرجو لكم رحمة الله إلا حب الدنيا وطلبها والتشبه بأهلها فانه لا يرجى لكم فلاح مع ذلك وكيف ينظر الله إليكم ويرحمكم ويفتح بصائركم وقلوبكم ملطخة بحب الدنيا التى هى أبغض شىء إلى الله تعالى ونحن لا نحب منكم مالا ولا خدمة وإنما نحب أن تكونوا رجالا نلقى الله تعالى بكم فى صحيفتنا وتبيضوا وجهنا مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وذلك بالعمل بالسنة واتباع طريق السلف الصالح لا بحب الدنيا والبحث عنها فان كل من فى الدنيا حاله كذلك فأى فائدة للعلم والعمل إذا كنا من جملتهم وهذا من أغرب ما اختص به الشيخ رضى الله عنه وخالف به أهل عصره من شيوخ الوقت وفضلائه فضلا عن علماء الوقت الفجار الذين هم أشد الناس حباللدنيا ورغبة فيها وحرصا عليها وعلى تعليم أولادهم ما يوصلهم إلى الدنيا ولو بذهاب دينهم وكفرهم وإلحادهم لا بارك الله فيهم ولا فى أولادهم فما خرب الدين إلا من جهتهم .

وكان شديد الكراهة لما فيه تشبه بالكفار ولو فى الشىء اليسير ويبالغ فى الزجر عن ذلك والنهى عنه ويتعجب من حال علماء مصر فى التشبه بهم فى لبس أحذيتهم وهيأة فراشهم ومساكنهم وفى الأكل بالشوكة والسكين وقص اللحى وحلقها ويقول ما شموا رائحة العلم ولا وصل شىء منه إلى قلوبهم وإنما هم سماسرة الشر والفساد يحترفون بالعلم ويأكلون به ويضلون من يقتدى بهم لظنه أنهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ومعاذ الله أن يكونوا ورثة الأنبياء مع ما هم عليه من هتك الشريعة وخراب الدين فكان لا يتصور أن يقطع أحد الخبز بالسكين على مائدته فضلا عن أن يأكل بالشوكة والسكين ولا يتصور أن يلبس حاجة مما فيه تشبه بالكفار لولده الطفل الرضيع ابن شهرين فضلا عمن فوقه ، بل والكتب على كثرتها كانت عنده موضوعة وضعا عربيا

كل مجلد فوق الآخر إلى نحو عشرين مجلداً وكان دائماً يتعب فى أخذ المجلد الذى يريده لا سيما إذا كان هو أسفل مجلد وطولب مرارا أن يضع الكتب على الشكل الحديث كل مجلد قائم بنفسه لسهولة تناوله فأبى لما فيه من التشبه بالفرنج فما بالك بما هو أكثر من هذا وأقرب شبها منه بأحوالهم ولما دخل بعض بيوت كبار العلماء ومشايخ الاسلام فى مصر ورأى هيأته الفرنجية المنكرة كان يتعجب ويضحك من صنع الله بهم ولا ينقضى عجبه منهم ، ويقول لا أدرى كيف يستجيزون هذا أو يرضونه لدينهم ولا من أى دليل يعتمدون فى ارتكابه نسأل الله العافية .

وإذا كان العارف أبو الحسن ابن ميمون أنف فى أواخر القرن التاسع كتابه غربة الاسلام بين المتفقهة والمتفقرة بمصر والشام وما والاها من بلاد الاعجام وحكم فيه بكفرهم وردتهم ومروقهم من الدين فما بالك لو رأى هؤلاء المجرمين المتفرنجين بل هم والله شر من تحت أديم السماء كما ورد فى السنة المطهرة .

فصـــــل

وكان يكره الوظائف الحكومية وينهى عنها كل من يحبه ويأمره بالتباعد منها والتكسب بالحرفة والتجارة لا سيما خطة القضاء والشهادة فانه كان يبالغ غاية فى الزجر عنها والتنفير منها ويقول لان يبيع طالب العلم الفحم والحطب والنعناع ويدور به فى الأسواق والشوارع خير له فى دينه ومروءته من تولية القضاء والشهادة اليوم لغلبة الشر والفساد على أهل هذين الخطتين بل كان ينهى عن مجالسة القضاة والعدول ويجعل مجالستهم دليلا على فساد الأخلاق والتهور فى الدين فقد أخبرته يوما أنى رأيت بعض أهل العلم الموصوفين بالصلاح جالساً فى دكان بعض العدول فصار يبدى عجبه الشديد ويقول كيف استجاز الجلوس معهم وهو يعلم حالهم بل نهى مرة بعض أنجاله عن

المرور من الشارع الذى فيه دكاكين العدول .

وجاء اليه مرة من يخبره بأن أحد أصهاره ولى رياسة محكمة الاستئناف بطنجة كأنه يريد بشارة الشيخ بذلك فغضب وقال له تريد بشارتى بما يؤسف له ويحزن من أجله هذا شىء فيه اتلاف دين المرء وذهابه فلا يفرح به وجاء اليه مرة صهر له يستشيره فى تولية منصب خليفة القاضى بتطوان إذ عرض عليه ذلك المنصب من أهلها وأبى أن يتقدم اليه حتى يستشير الشيخ لعلمه بكراهته لذلك فمنعه منه وأمره بالتدريس ووعده إن امتثل أمره أن يفتح الله تعالى عليه بالرزق من حيث لا يعلم وأن لا يحتاج طول عمره فكان كما قال .

وكان رضى الله عنه وقافاً عند الشبهات شديد التيقظ فى شئون الورع يتنبه لما لا يتنبه له غيره ويقف عند مالا يظن بأحد الوقوف عنده من الدقائق والخفيات ولا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ويراجع أقوال أئمة المذاهب ويحيط بما فى الأمر من رخصة وعزيمة وتخفيف وتشديد وعند ذلك يترخص فى الفعل والاذن لغيره ويرجح جانب المنع فيتأخر عنه وعن الاذن به وقضاياه فى هذا كثيرة جداً بالنسبة لامور الحادثات والمخترعات الجديدة التى تحتاج إلى بحث عن حكم الله فيها بل التنبه لمسائل الورع كان من أخص أحواله وأهم الامور عنده حتى كان ينبه العالم والفقيه والصوفى لما كان الواحد منهم يظن أنه من أشد الأشياء موافقة للشرع وانه لا محظور فيه أصلا فاذا ما بين له وجه ذلك تعجب من دقة نظر الشيخ وغوصه على الحقائق فى هذا الباب وربما توقف من جهة التهمة وسوء الظن ويقول ان الفعل جائز شرعا لا محظور فيه ولكن الله أمرنا أن نتباعد من مواقف التهم وأن لا نوقع المسلمين فيه وربما علم حكم الله فى المسألة من جهة الدليل من الكتاب والسنة ونصوص فقهاء المذهب ولكنه لخفائه على كثير من الناس لا يأمر به حتى يقول للسائل مثلا استصدر فتاوى العلماء حتى لا يكون هو مستأثراً بعلمه

obeikandi.com

ومعرفته وربما توقف فى نفسه حتى يسأل العلماء وهو من أعجب الأحوال وأغربها بالنسبة الى ماكان عليه من الاطلاع الواسع فى الفقه بحيث لايكاد يشذ عن علمه منه فرع لا سيما بعد التصدى للبحث والاطلاع وتوقف فى تجليد الكتب عند مجلد نصرانى حيث لم يكن بالبلد مجلد مسلم فعرف حكم الله فى ذلك من الدليل ووقف على أقوال الأئمة فيه ولم تطمئن نفسه دون استفتاء العلما فأمرنى بارسال سؤال الى مفتى الديار المصرية وعالمها شيخنا الشيخ محمد بخيت وكتب هو رضى الله عنه الى مفتى الديار المغربية وفقيهها سيدى المهدى الوزانى .

فكتبت إلى الأول ما صورته ما قولكم أطال الله رعيكم فى تجليد كتب التفسير والحديث والفقه وغيرها عند مجلد كافر هل ممنوع كما يؤخذ من كلام بعض المالكية إذ قال يمنع بيع التوراة والانجيل للكفار وكذا إعطاء دراهمنا التى فيها اسم الله لهم لما فى ذلك من إهانة اسم الله وكلامه أم هو جائز كما يستفاد من رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى هرقل كما فى الصحيح وفيها اسم الله وذكر آيات من كتابه أفيدونا بجواب كاف مبسوط بالأدلة الشرعية ولكم الثواب .

فأجاب بقوله اطلعنا على هذا السؤال ونقول قال قارىء الهداية أهل الذمة فى المعاملات كالمسلمين فما جاز للمسلم فعله فى ماسكه جاز لهم ومالا فلا اه وكتب الأصول والفروع مشحونة بأن الكفار فى المعاملات كالمسلمين سواء لهم فيها ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وكتب الأحاديث مملوءة بأنه صلى الله عليه وسلم استعان بالكفار فى عدة أمور اذا علمت هذا علمت أنه يجوز للمسلمين أن يعاملوهم بجميع المعاملات من بيع وشراء واستصناع أهل الحرف منهم كما يجوز لهم ذلك مع المسلمين ولذلك لما كان مدار المعاملات على الدراهم والدنانير وكانت تلك فى صدر الاسلام عليها تماثيلهم لم يستنكف المسلمون عن تداولها والمعاملة بها فيما بينهم وفيما بينهم وبين الكفار المتوطنين معهم

فى دار الاسلام كما لم يمتنعوا من مبايعتهم واستصناعهم كما أن عبد الملك بن مروان لما ضرب الدراهم والدنانير فى عصره كتب عليها بعض آيات قرآنية لسبب أمر مذكور فى التواريخ تداولها الناس كافة وتعاملوا بها بلا فرق بين مسلم وذمى ومن هذا يعلم أن تجليد كتب التفسير والحديث والفقه وغيرها من الكتب المشتملة على بعض آيات من القرآن و بعض الأحاديث عند مجلد كافر أن هذا من قبيل الاستصناع واما ما نقل عن بعض أئمة المالكية وهو قوله يمنع بيع التوراة الخ . فمثله ايضاً موجود فى كتب الحنفية قال فى شرح السير الكبير لاينبغى للامير أن يبيع التوراة والانجيل والزبور من المشركين مخافة أن يضلوا به فيكون هو السبب فى فتنتهم واصرارهم على الكفر وذلك لا رخصة فيه وكذلك لا يبيع من مسلم وكذلك لايقسمه بين الغانمين وأما الدراهم والدنانير فلا بأس بقسمتها وبيعها قبل أن تكسر ألا ترى أن المسلمين يتبايعون بدراهم الأعاجم وفيها التماثيل والتيجان ولا يمنع أحد من المعاملة بذلك وإنما يكره هذا مما يلبس أو يعبد من دون الله من الصليب ونحوه اه . ولا شك أن هناك فرقا بين الاستصناع وتجليد الكتب لأن المقصود منه مجرد هذا العمل لا غير ، واما بيع التوراة ونحو ذلك فالقصد التمليك نعم لا يجوز ان يجلد القرآن لأن مسه للمحدث مكروه تحريما او حرام لما فيه من مس الكافر له عند التجليد ولا شك فى انه محدث اما حدثا اصغر او كلا من الحدثين هذا ما رأيناه والله أعلم اهـ .

وأجاب الثانى بقوله وأما تجليد النصرانى للكتب فيظهر أنه لا بأس به إن لم يظهر منه مكروه فى تجليدها لحمل أمرهم على الطهارة فى الأشياء التى يتناولها وقد تذاكرت مع بعض العلماء المشاهير هنا فقال لى لا بأس بذلك ويمكن الحكم النظر فيها إذ يرى الحاضر ما لا يرى الغائب .

وكان لايأكل طعام الكفار ولا حلواءهم وسمعته مرة يقول من نعم الله على أنى ماذقت الشكولاطة فى حياتى ولما توجه إلى القاهرة مكث طول مدة السفر لايأكل إلا الخبز والزبدة ولا يأكل مايقدمه أهل البابور من الأطعمة الفاخرة

لأهل الدرجة التي ركب فيهـا ولا من المباحة مثل السمك المقلى والبيض والخضروات ، ونحوها

وكذلك لايستعمل دواءهم إذا مرض خوفاً أن يكون فيه خمر أو نجاسة مع أنه كان يأمرغيره بالتداوى عندهم وتناول أدويتهم لـكنه لايستعمل ذلك فى نفسه وكذلك كان لايترك فى بيته آنية أو ثوباً فيه صورة ولو غير مجسمة وكم أبدى عجبه حين زار بعض كبار العلماء بمصر ورأى فى بيته انصاف صور الرخام المجسمة كما كان يتعجب من لبسهم للقفاطين التى سداها قطن ولحمتها حرير ولا يتفق له مايراه من أحوالهم مع العلم والعمل به

وكتب إلى مرة وأنا بالقاهرة يقول وتغييركم اللباس به حيث اضطرركم إليه لعدم ملبوس المغاربة هنا كم لا بأس به ولـكن ولا بد ولا بد اجتنب مايترخص به علمـاء مصر من الحرير الـكثير الذى يستعملونه فى ملابسهم فان ذلك من أقبح مايرتكبونه من رخصهم البعيدة من متـانة العلم والدين المحبوبة للشارع اهـ

قال فى النسمات لمترجم لورعه رضى الله عنه كان قوياً فى دينه محافظا على أوامر الشرع واقفاً عند حدوده آخذاً بالعزائم تاركا للرخص لا يقدم على الأمور حتى يعلم حكم الله فيها ولا يتناول من الأشـياء إلا ماتحقق حليته واتضح حكمه وبانت سلامته ولا يحوم حول ماوقع فيه التردد والشبه بل كانت جميع شئونه مبنية على ماهو خالص من الشبه سالم من الاعتراض ظاهراً وباطناً وكان فى الظاهر متقيداً بمذهب مالك رضى الله عنه وفى حقيقة الأمر كان مجتهداً يأخذ الأحكام من أصلها والحقيقة من عينها ومع ذلك فـكان لايخرج عن مشهور المذهب لا فى نفسه ولا فى فتواه لغيره إلا لضرورة وذلك لـكماله وتحفظه وشدة ورعه وسلوكه طريق الجمهور الذى هو قول العـامة من الفقهاء وكان يتورع فى جميع شئونه من أكل وملبس ومسكن وكلام وقد كانت تهدى اليه أشياء من مأكولات وملبوسات فلا يتناول منها إلا ماتحقق سلامته من الشبهة والحرام وما رأى فيه شبهة أخرجه وتصدق به فى الحال وكان راسخ

القدم فى هذا المقام لاتحركه الرياح العواصف ولا تعمل فيه المطامع ولاتستميله الحظوظ ولا تستفزه الرخص فما رأيت أحداً ممن اجتمعت به من علماء الوقت وشيوخه وصلحائه أعلى همة ولا أكمل ورعا ولا أكثر عن الله فهما ولا أعظم بالله استغناء ولا اشد له محبة ولحرماته تعظيما من سيدنا رضى الله عنه فلا يعول فى جميع أموره إلا على مولاه ولا يطلب حوائجه إلا من الله ولا يتوكل إلا عليه ولا يستعين إلا به ولا يأخذ إلا من الله ولا يعطى الا لله قد سقط الكون من نظره وثبت الحق فى مشهده وسره قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا اه

وكان لا يكثر من تناول الشهوات ولو كانت مباحة سالمة من الشبه والعلل ويحث على عدم تناولها وعلى التقلل منها ويذم المسترسل فيها لاسيما اذا كان من طلبة العلم وأهل الطريق بل يستدل بذلك على عدم انتفاع الطالب بعلمه والفقير بتصوفه وذكره ويتعجب من حال علماء الوقت وصوفيته فى ذلك .

فصل

وأما زهده فى الدنيا وبغضه لها وإعراضه عنها وعما يقرب اليها فأمر يعترف به الموافق والمخالف من المسلمين والنصارى رجال حكومة الدولتين الفرنسية والأسبانية فقد سلكوا معه كل مسلك وعرضوا عليه من الأموال ووسائل الحصول عليها مايصير به أغنى أهل المغرب فما رفع اليهم رأساً ولا أجابهم الى مطلب ولا سكت عن المعارضة ونشر مايقتضيه الدين من الدعاية ضدهم فى الدروس العمومية والمجالس الخاصة والعامة والسعى فى ذلك بالأقوال والأفعال وبذل الأموال إلى أن أيس من المسلمين وتحقق من مراد الله فيهم فعند ذلك لزم بيته وأقبل على شأنه وترك الأمر لله بدون معارضة فجمع بين الشريعة والحقيقة وامتثل أمر الله تعالى فى الأول والآخر وحرك سلسلة الأسباب فلما علم أن مراد الله من خلقه فى الوقت ماهم عليه ألقى مقاليد

التسليم وصار ينتظر مايبرزمن الحضرة الالهية بدون حركة ولاتسبب متمسكا بعروة انتظار الفرج بالصبر عبادة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم

وقد قدم اليه مرة المندوب الأسبانى أربعين الف ريال أسبانية ليوافق على تولية بعض الظلمة الجائرين على القبائل الغمارية ، فقال له : لو ملأت لى هذه الغرفة ذهبا ما وافقت على تولية رجل يظلم المسلمين ويسلب اموالهم ويسفك دماءهم فازداد عظمة وجلالة فى اعينهم حيث لم يرفع راسا لما قدموه اليه من ذلك القدر العظيم الذى من كان يمتلكه فى ذلك الوقت كان من اعاظم الأغنياء ، لا سيما والرجل المذكور كان متوليا للحكم ، وانما كان الشيخ ينازع فى توليته ويطلب عزله من الحكام لفرط إذايته للمسلمين .

وخاطبته دولة فرنسا مراراً على يد سماسرتها بأنها ستمد له يد المساعدة فى المغرب أسره وترفع من شأنه على جميع شيوخ المغرب وتساعد على نشر طريقته وكثرة أتباعه وتسهيل مصالحه ، فكان يجيب عن ذلك بالذم الشديد لها والتصريح البالغ المنتهى فى ذلك بما لا يستطيع احد سماعه فضلا عن النطق به ، لا سيما مع سماسرتها الذين هم عندها بمنزلة الوزراء وعظماء رجال الدولة لحقارة الدنيا فى نظره وعلمه بدسائس فرنسا وما تقصده وراء ذلك من القضاء على المرء وهلاك دينه .

واما السلطان عبد الحفيظ فلو اجاب رغبته الأكيدة فى الاجتماع به ولو مرة واحدة لاغناه ، وقدم اليه من كرائم الأموال مالا يقدمه ملك لمثله فقد مكث ازيد من شهرين يتملق ويرغب ويتوسل بكل الوسائل فما اجابه إلى ذلك ولا راعى فيه الوسائط والشفعاء الذين طال ترددهم اليه وإلحاحهم عليه فى الاجتماع لأخذهم الأموال الكثيرة على ذلك من عبد الحفيظ .

وكانت عنده رسوم معادن للفضة والحديد وانواع اخرى بالبلاد الغمارية فخاطبه بعضهم مراراً فى مباشرة امرها مع الحكومة والشركات فكان يجيب بأنه لا يرشد الكفار إلى معادن المسلمين ولا يكون السبب

فى تملكهم إياها ، ولما كثر الالحاح والطلب عليه اضاع تلك الأوراق والرسوم .

وكان كثير من الفقراء يهدون اليه الأراضى ويكتبون له الاثلاث فيرد ذلك ولا يقبله كما أنه زهد فى ميراث أبيه فما سأل عن شيء منه قط لا عن رقبته ولا عن إيراده من الزيت والحبوب وغيرها فى أمثال هذا مما لم نسمع به عن أحـد من أولياء العصر وشيوخه الصالحين فضلا عمن دونهم من الدجاجلة المتمشيخين فقـد اغتنى جلهم بالمغـرب وبلغت رؤوس أموالهم الملايين وامتلـكوا القرى والضـياع حتى قال لى بعض الفضلاء يوماً وهو يحدثنى عن غنى بعضهم أنه جمع من الدنيا ما لم يدخل بيد جميع أسلافه من ظهور الاسلام الى اليوم بل لو جمع ما دخل بيد جميع أسلافه لما بلغ نصف ما امتلـكه هو وحده كل هذا زلوه بموالاة فرنسا وموافقتها على أغراضها وخدمة سياستها وتثبيت قدمها فى المغرب وتحكمها فى رقاب المسلمين حتى صار شيوخ الطريقة بالمغرب كلهم جواسيس وعيون على حركات المسلمين العامة والخاصة نسأل الله العافية بمنه .

ومن زهده فى الدنيا وحقارتها فى نظره عـدم اهتمامه بشؤون البيت ولوازمه الضرورية فـكانت الأيدى الـكثيرة كلها عاملة بما تهواه فـكل يطبخ مايشاء ويأكل مايشاء ويأخذ مايشـاء متى شاء فـكان يحصل بذلك ضياع كبير فوق الحاجة فى أمور المعيشة والأوانى والملابس بما كان يعرض غيره للاطلاع عليه وهو لايهتم بشيء من ذلك ولا يفـكر فيه ولا يجعل لذلك التضييع والاسراف حداً ولا يلقى له بالا كأنه غير موجود فى البيت بل هو رضى الله عنه غائب عن كل ذلك مشتغل بربه هائم فى مراقبة جلاله وشهود جماله لا يتكدر للدنيا كلها لو خرجت من يده فضلا عما هو فى بيته .

ولما شرع فى عمارة البيت لسكناه كلف به أحد الفقراء وصار كلما يفتح الله به يدفعه له ولا يسأله عما دفع ولا ما بقى ولا يأخذ منه حسابا ولا يكلمه

في ذلك أصلا ولا يأمر في البناء بكيفية ولا يشير الى حاجة ولا قدم اليه يوما ليراه حتى تم ودخل يسكنه مرة واحدة ثم لما ضاق البيت اشترى دوراً كانت مجاورة له وأدخلها فيه بهذه الطريقة مع فقير آخر وهو رجل مسرف لا يخاف الله ولا يراقبه في خلقه فكان يصرف من المال الذي يدفعه إليه الشيخ لأجل البناء ما يشاء في أغراضه الفاسدة وشهواته الساقطة والشيخ يعلم بذلك فلا يرده عنه وعن المعاملة معه كما كان بل قال يوما لمن كلمه في شأن ذلك من يوكل لا يخاصم نحن فوضنا إليه فلا نحاسبه ولا نراقبه ثم لما طالت الشكاية وكثر الكلام من الناس أشرك معه بعض من كان يدخل اليه كل يوم بعيوب ذلك المكلف وجعل المال تحت يدهما معا فكانا يصرفان منه جميعا في شهواتهما وأغراضهما وانضم اليهما ثالث فكان كذلك والشيخ رضي الله عنه لا يزيد على الضحك اذا اخبر بشيء من ذلك .

ودخل بيده مرة احد عشر الف ريال فأرسل اليه بعض الفقراء يطلب منه ان يدفعها اليه يتجر بها ويقلبها من سكة الى اخرى ثم يعيدها في اقرب وقت ، فمكثت عنده سنتين وادعى أنه خسر في التجارة والنفقة فذهب جميعها ولم يبق منها قرش واحد . فتعجب الشيخ من حاله وحرصه على الدنيا وعلم ان الدنيا هي منتهى نظره وقصده من صحبته فما كلمه بكلمة واحدة ، بل زاد فأرسل اليه خمسمائة ريال لبعضهم يقول له أمنها لنا عندك حتى يظهر ربها فادعى بعد أيام أنها سرقت من الدكان مع ان الدكان داخل وكالة لها باب عليها خفير ينام بالوكالة ساهرا على الدكاكين ، فما تكلم بكلمة مع ظهور كذبه كالشمس في رابعة النهار ، بل قال حيث إنهم لم يريدوا من صحبتنا الا الدنيا فدعهم يأخذون ما وجدوا منها فليست الدنيا كلها بشيء حتى نتكدر لأجلها . ووقائعه في هذا كثيرة جدا لا تكاد تحصى .

وفي أواخر عمره بلغ في الزهد فيها الى حد لا يمسك عنده منها درهما واحداً أصلا ويبيت دائما وليس في داره قرش واحد . بل كان كلما فتح الله

بشيء أنفقه في الحال ودفعه في الديون التي تترتب عليه لأصحاب الدكاكين التي يأخذ منها الثياب التي يتصدق بها ويكسوها من يقصده من القرابة والغرباء في اللباس وأصدقة الزواج ونحو ذلك أو للرجل المكلف بالنفقة على البيت وكان لا يسأله عن شيء ولا يعين له ما يشترى ، بل كان الرجل يشترى الطعام اليومى بنظره وشهوته والشيخ لا يعلم به ولا بما يطبخ حتى ينزل بين يديه .

وكان لا يحمل معه النقود أصلا لا في الحضر ولا في السفر ، بل اذا كان مسافرا يدفع كل ما عنده لمن يصحبه في السفر ويكون مكلفا بشئونه ، وكان لا يعمل في ثيابه جيبا أصلا حتى انه كان يضطر أيام تدريسه الدروس المتعددة متصلة في وقت واحد الى حمل ساعة معه ليعلم الوقت الذى ينتهى فيه درس النحو ويشرع في درس الفقه وكذلك بعده درس الحديث فكان يضع الساعة في تكة السروال .

وكان لا يأكل في اليوم إلا مرتين يفطر في الصباح ويتغدى بعد العصر ولا يتعشى لا في صيف ولا في شتاء . ويستقبح ثلاث أكلات في اليوم ويقول انها من السرف والشره .

وكان اذا أراد شراء ملبوس لا يختاره أيضا لا ثوباً ولا لونا بل يكلف من يشترى له الثوب ويخيطه ويأتيه به فيلبسه كيفما أتى به على النحو الذى يلبسه وكان لا يكثر من الثياب ولا يزيد على ثوبين إذا اتسخ أحدهما دفعه للغسل ولبس الآخر .

وكان لا يتخذ اللباس للزينة بل للحاجة والضرورة فاذا كان عنده ثوب جديد حسن وعليه ثوب دونه أو بدا عليه أثر الاتساخ وأراد الخروج فانه لا ينزع الثوب الذى عليه ويلبس الثوب الجديد أو الغسيل من أجل مراعاة الناس بل يخرج بالثوب الذى اتفق عليه ساعة الخروج كيف كان .

وإذا أتى بلباس جديد أو حذاء جديد لبسه وتصدق بالذى كان يلبسه

قال فى النسمات وأما زهده رضى الله عنه فكان على التحقيق والحقيقة على نعت ما وصف به المحققون من أهل الطريقة متخلقاً به ظاهراً وباطناً لا يتوسع فى مأكله ولا يترفه فى ملبسه ولا يتأنق فى مسكنه بل كان آخذاً من الجميع ما تقوم به ضرورة الحياة مقتصرا على مالابد منه نابذاً للملذوذات والشهوات فلا يعبأ بالدنيا وأهلها وزهرتها ومتاعها استوى عنده وجودها وفقدها فان وجدها أنفقها فيما أمر الله بانفاقها فيه بل آثر منها على نفسه وعياله وان فقدها رضى بمراد الله وفهم عن الله فيه فلا يفرح لوجدانها ولا يحزن لفقدانها وهذا هو حقيقة الزهد كما قال ابن عطاء الله رضى الله عنه فى التنوير للزهد فى الدنيا علامتان علامة فى وجودها وعلامة فى فقدها فالعلامة التى فى وجودها الايثار منها والعلامة التى فى فقدها وجود الراحة منها فالايثار شكر لنعمة الوجدان ووجود الراحة شكر لنعمة الفقدان وذلك ثمرة الفهم عن الله والعرفان لان الحق سبحانه كما ينعم بوجودها ينعم بصرفها بل نعمته بصرفها أتم .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه رأيت الصديق رضى الله عنه فى المنام فقال لى أتدرى ما علامة خروج الدنيا من القلب قلت لا أدرى قال بذلها عند الوجود ووجود الراحة منها عند الفقد اهـ .

وهكذا كان حال سيدنا رضى الله عنه إذا وجدها وفتح الله تعالى عليه بشىء منها أنفقه فى وجوه البر والاحسان وآثر على نفسه وعياله فيواسى به الضعفاء وذوى الحاجات ولا يدخره ولا يسلك فيه مسلك الراغبين فى الدنيا من صرفه فى الشهوات والملذوذات بل كانت همته رضى الله عنه فى الباقيات الصالحات .

وكان دائما ينظر إلى الدنيا بعين الاهانة والاحتقار وينفر منها ويحذر من محبتها واستغراق العمر فى طلبها ويقول إذا كان الفقير يتردد الى أبناء

الدنيا ومجالسهم لايجىء منه شىء فى الطريق ولا يطمع فىوجود قلبه ولا فى حلاوة الاقبال على ربه لان أبناء الدنيا أموات القلوب ومن خالطهم مات قلبه مع من تكون بحاله تكون .

وكان رضى الله عنه يقول مثل الدنيا مثل من يضرب بالحجارة فما يخطئه منها خير مما يصيبه .

وكان إذا لبس ثوباً جديداً تصدق بما عنده وكان يأمر أزواجه وأولاده بذلك ويقول لهم إنكم لن تزالوا فى سعة ونعمة وستر أحياء وأمواتاً ما فعلتم ذلك . ولقد صدق رضى الله عنه فيما قال ووعد به . فكان بمقتضى هذه السيرة الحسنة تترادف عليه النعم الجزيلة والخيرات الجسيمة وتحفه العيشة الراضية الطيبة .

ومما يدل على صدق زهده فى الدنيا اننا منذ جمعنا الله به وخالطناه ما يزيد على الثلاثين سنة ما سمعناه يذكر الدنيا الا بلسان الذم والاحتقار . وكان متبريا من الدنيا وزهرتها وابنائها متصلا بها بجسده منفصلا عنها بقلبه وروحه . لا يدعى لنفسه ملك شىء منها بل يرى نفسه مستخلفا فيه فيضعه بين إخوانه ويجعلهم شركاء فيه .

وكان يقول : الأخ الحقيقى هو الذى لا سر عنده مكتوم ولا مال مقسوم .

ومما يدل على زهده فى الدنيا أيضا اننا ما علمنا ولا سمعنا أنه تكلم على متروك أبيه وأجداده الكرام أو بحث عنه أو عرض بذكره دارا وعقارا أو حبسا او غير ذلك بل ألغى جميع ذلك وصيره نسياً منسياً كأن لم يكن وتركه لاخوته ينتفعون به . وبالجملة فزهد هذا السيد رضى الله عنه فى الدنيا شىء كبير لا طاقة لنا باستقصائه كما لا قدرة لنا على معرفة ما كان عليه من حقيقته وانما أشرنا إلى هذا النزر القليل من زهده تبركا بذكره اهـ .

فصـــــل

وأما توكله رضى الله عنــه فـكان توكل كبــار العارفين وأفراد الأمة المحمدية الذين أطلعهم الله على اللوح المحفوظ فشاهدوا فيه رزقهم وحصل لهمْ بذلك الاطمئنان التام كما قال العارف الـكبير سيدي أفضل الدين رضى الله عنه : إن للعبد فى أمر الاضطراب فى رزقه ثلاث مراتب .

الأولى : وهى التى تقع بها الطمأنينة لقلبه ويزول بها الاضطراب بمـا زاد على الجزء البشرى اطلاعه على الامام المبين الذى أحصى الله تعالى فيه كل شيء فان جميــع ما كتب فيه لا يصــح فيه تبــديل ولا تغيير ولذلك سمى باللوح المحفوظ أى من المحو والتبديل بخلاف ألواح المحو والاثبات فانها تقبل التبديل والتغيير . فمن رزقه الله الاطلاع على هذا اللوح اطمأن قلبه برزقه ضرورة وهو خاص بأكابر الأولياء . قال وإنمــا قيدنا زوال الاضطراب بمــا زاد على الجزء البشرى تبعاً للمحققين لأن حجاب الجزء البشرى لو زال بالـكلية من الاوليــاء لمــا كان للأنبياء مزية عليهم كما أن الانبياء لا يصح لهم الاحاطة بجميــع ما أحصى الله تعالى فى الامام المبــين فلا بد لهم من الحجاب عن شهود شيء فيه لئلا يساوى علمهم علم الحق تعالى ولا قائل بذلك وغاية ما فى اطلاعهم عليــه أن الله تعالى أزال عنهم الاضطراب ليتميزوا عن غيرهم من أكابر العارفين .

المرتبة الثانيــة : أن يكون مطمح بصر العبد ألواح المحــو والاثبات الثلاثمــائة والستين لوحاً ومن لازم ذلك عدم الطمأنينة لقبول هذه الالواح التبديل والتغيير فلا يثق الولى بمــا يراه فيها .

المرتبة الثالثة : أن لا يكون له اطلاع على اللوح المحفوظ ولا على الواح المحو والاثبات كغالب الناس فمثل هذا لا يسلم قلبه من الاضطراب بغــالب أجزائه ولم يزل مهتما بأمر رزقه ليلا ونهارا ولـكن من نعم الله تعالى على

أهل هذه المرتبة أن جعل اهتمام أحدهم برزقه مكفرا لذنوبه اهـ نقله العارف الشعراني رضي الله عنه في الفلك المشحون ، ثم قال وعلى هذا التقرير فما سلم أحد من اضطراب قلبه في أمر رزقه سوى الأنبياء عليهم السلام ؛ وأما غيرهم فان حفت أحدهم العناية الربانية تعطلت منه صفة الاضطراب عن الاستعمال والا فلا بد من الاضطراب اهـ .

قلت : فكان الشيخ رضي الله عنه من أهل المرتبة الاولى وممن حفته العناية الربانية فتعطلت منه صفة الاضطراب فكان شأنه في هذا الباب من أعجب ما رآه الراؤون وأغرب ما يسمعه السامعون حتى كأنه من أعاظم ملوك الدنيا وأكابر أغنيائها لا يهتم برزقه أصلا ولا يفكر في أبوابه ولا يذكره على لسانه مع أنه لا يملك دينارا ولا درهما ولا داراً الا التي يسكنها ولا أرضا الا ما ورثه من أبيه وقد سامح فيه لاخوانه مع أنه شيء لا يذكر بالنسبة لضعف البلاد وعظم نفقة الشيخ ولا يزرع ولا يتجر ولا له وظيفة ولا مرتب ولا معلوم الا قدرا بسيطا كان يأخذه من الأوقاف في بداية أمره وتدريسه مما لا يكفي لمصروف وقت واحد فضلا عن يوم كامل فضلا عن شهر كما هي حالة الأوقاف بالمغرب لا لضعفها وقلة وفائها بحقوق أهلها ، بل لفساد ولاتها واستئثارهم بها هذا مع ما كان في بيت الشيخ رضي الله عنه من العائلة الكبيرة المؤلفة من أزيد من عشرين نفساً دون الضيوف من النساء والرجال الذين لا يخلو يوم واحد منهم من اثنين وثلاثة الى عشرة وعشرين ، ومع كونه لا يلتفت الى ما يحصل في البيت من إسراف وتبذير مفرطين بحيث ما كان يستهلكه أهله من أنواع المطعومات ولوازمها ضعف أضعاف ما يستهلكه مثلهم في العدد في بيوت الأغنياء وأهل الدنيا ومع كونه أيضا لا يدخر قوت أسبوع فضلا عن شهر فضلا عن سنة بل كل يوم بنفقته وكثيرا ما يتفق أن يكون عنده من الضيوف ما يزيد على العشرة بل والعشرين ويصبح وليس في البيت مطعوم أصلا ولا عنده كذلك دينار ولا

درهم وهو فرح مسرور غير مهتم بشيء كأن خزائن البلد عامرة برزقه وملكه وربما زجر من يذكر له ذلك أو يذكره بالضيوف بل اذا أصبح دخل الى مكتبته وأقبل على المطالعة فلا تمر برهة حتى يفتح الله بكل ما يلزم وأكثر منه وأحياناً اذا دخل الضيوف أرسل يستدين مايلزم لطعامهم وربما استمر على ذلك الحال الاسبوع والأسبوعين والشهر الكامل فاذا فتح الله أدى ما عليه ومع كل هذا فكان أهله لا يأكلون الا اللحم والسمك والبيض ونحو ذلك من فاخر الأطعمة التى لا يدركها كل يوم الا الأغنياء وهذا هو الذى حير الناس فى أمره حتى كانوا يظنون به الظنون الكاذبة ويقولون ان الدول تنفق عليه لأنه ما كان يتحرك فى شيء ولا يسيح فى المدن والقبائل كما يفعله شيوخ الوقت ولا يخرج من بيته أصلا مع هذه النفقات الكثيرة وهذا أيضا هو الذى كان يثيرعليه حقد الدولتين الفرنسية والأسبانية لان كل واحدة منهما كانت تتهمه بالميل الى الاخرى وخدمة مصالحها وكونها هى التى تنفق عليه .

وقد اجتمع الشيخ مرة ببعض حكام الاسبان فقال له ذلك الحاكم نحن يبلغنا أنك تأخذ الدراهم من الفرنسيين لتكون ضدنا فقال له الشيخ وهل آخذ منكم دراهم قال لا قال فكذلك لا آخذ منهم لانهم يقولون أيضا إنى آخذ منكم لأكون ضدهم فان كان زعمهم أنى آخذ منكم المال حقا فيمكن أن يكون ما تقول حقا أيضا وحيث إنك تعلم أنى لا آخذ منكم شيئا وأن زعمهم باطل فكذلك زعمكم أيضا باطل .

وسأل مرة بعض كبار المتصدرين للمشيخة بالمغرب بعض قرابة الشيخ رضى الله عنه فقال له بكم من زوج يحرث الشيخ فقال له ما حرث طول عمره ولا بزوجة واحدة ولا يملك مزرعة ولا ثورا ولا بقرة ولا بيتا وانما هو من المتوكلين على ربه فقال له هذا لا يمكن فان مانسمعه عنه من النفقات الواسعة لا يتيسر الا لمن عنده على الاقل حرث أربعين زوجاً فأكثر فقال

له الواقع هو ما أخبرتك به وأنه لا يعلم من أسباب الرزق شيئا فما كاد يصدق وقوفا مع العادة والاسباب ونظرا الى حاله وحال أمثاله من الشيوخ والعلماء .

وقال بعضهم للشيخ رضى الله عنه مرة يا سيدى لو خففت من الناس الذين فى نفقتك فان الحمل ثقيل والوقت شديد فقال له ان السفينة لايستقيم سيرها فى البحر وتأمن تلاعب الرياح بها حتى تكون عامرة مثقلة .

وبالجملة فحال الشيخ رضى الله عنه فى هذا الباب من أغرب الاحوال وأعجب الاوصاف لابالنسبة الى حال أهل الوقت وصلحائهم بل وحال المتقدمين أيضاً من العارفين. فقد ذكر العارف الشعرانى رضى الله عنه أنه كان له وقفية يأخذ منها مايلزم للزاوية وأنه كان يدخر كل سنة نحو عشرة قناطير من عسل النحل وعشرين قنطارا من عسل القصب وثلاثمائة أردب من القمح وأربعين اردبا من الفول وسبعة أرادب من الارز وخمسة وعشرين أردبا من العدس والجلبان وخمسة قناطير من التمر والخرنوب والتين وأشياء اخرى كالبطيخ الهندى كان يدخر منه نحو ألفى بطيخة وكان يأتيه كل سنة من الحطب ما يكفيه للطبخ طول العام الى غير هذا من اللوازم والضروريات .

ومع هذا فذكر عن نفسه رضى الله عنه أن ذلك الجزء البشرى لم تتعطل صفته منه تماماً . أما الشيخ رضى الله عنه فقد سمعت الى اى حد يبلغ اطمئنانه وثقته بالله مع عدم ادخاره لقوت الاسبوع فضلا عن السنة .

قال فى النسمات : وأما توكله فكان على الحال الاكمل عند أهل الله تعالى لا يدبر ولا يختار منطرحا على باب مولاه على الدوام والاستمرار مستسلماً لامره معتمداً عليه فى سره وجهره فلا يهتم بأمر الرزق ولا يدبر ولا يسعى فيه لا لنفسه ولا لعياله بل كان يرى نفسه هو وعياله ضيوف الحق سبحانه يأكلون من مائدة رزقه ونواله متوكلا على الله حق توكله

فى جميع أحواله شدة ورخاء وعافية وبلاء لايستدعى طبيباً إذا مرض ولا يستعمل فى الغالب دواء وكان يقول فى مرضه اذا قيل له نستدعى لك الطبيب . مرض أبو بكر فقيل له ألا نستدعى لك الطبيب فقال الطبيب أمرضنى يعنى الحق سبحانه وتعالى لانه الطبيب الحقيقى اى هو الذى أنزل فىّ المرض وهو الذى يعافينى حين يشاء لا غيره من المخلوقين وهذا مقام للكمل من العارفين بالله .

وكان دائم التبسم والبشر والوجه الطلق وان كان متحملا باطنا من الاحكام الجلالية والنوازل القهرية والحملات البلائية عن الخلق ما لو نزل على شوامخ الجبال لدكت .

وكان لا يختار حالا على حال بل كان مع مولاه كالميت بين يدى غاسله .
وكان يقول : العارف المحقق لا يختار مع الله شيئا فلو أقامه فى الشمس ما اختار أن يكون فى الظل ولو أدخله السجن ما احب ان يكون خارجه وذلك لفنائه عن نفسه وحظوظه وبقائه بربه وسكونه تحت مجارى أقداره اهـ .

فصـــــل

وأما السخاء فكان منقطع النظير فيه لا يعظم فى عينه شىء يعطيه من مال وأرض وعقار وكتب وثوب وطعام وغير ذلك بل كان عطاؤه للالف كعطاء غيره للقرش الواحد بل أهون من ذلك بكثير فان الدنيا لم تكن تساوى فى عينه شيئا فكان لا يقيم لها وزناً كما تعرف ذلك مما تقدم فى زهده وتوكله ويكفيك انه كان يستدين ليعطى سائله بل ومن يرى احتياجه دون أن يسأله .

فكان فى غالب أوقاته مديناً لاصحاب الدكاكين الذين يبيعون الثياب

والأقمشة والأحذية يأخذ من كل واحد ما عنده ايعطيه للقاصدين والمحتاجين لاسيما أواخر عمره فانه مكث سنين وأعواماً لايأتى عليه فيها يوم لايكون مديناً لهم مع أنه دائم الدفع لهم حتى توفى وترك أزيد من عشرة آلاف ريال

وكان يقول من استدان فليستدن على ربه فانه لابد أن يؤدى عنه .

أما إذا دخلت بيده دنيا كثيرة فانه كان يفرقها فى الحال كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعل وكما وصف به صلى الله عليه وسلم المهدى يحثو المال حثياً ولا يعده عداً وقد أعطى مرة رجلا ثمانية آلاف ريال اشترى بها دارين أو ثلاثة وأعطى آخر أزيد من خمسة عشر ألفاً أما الألف والخمسائة والمائة مما كان يتيسر لديه فغير داخل تحت الحصر ما أعطى من ذلك

وكذلك كان يجود بأحب الأشياء اليه وهو الكتب حتى إن بعضهم اجتمع لديهم مما أعطاهم من الكتب مايكفيهم فى الفنون التى يعرفونها من نحو وفقه وحديث وتصوف وغيرها

وبالجملة فكان فى الكرم من الطراز الذى يضرب به المثل وتذكر أخباره مدونات الأدب والتاريخ.

قال فى نبذة التحقيق وأما سخاؤه وكرمه فحدث عن البحر ولا حرج فقد ثبت عندى من ثقات أصحابه وغيرهم حتى من المنحرفين عنه أنه كان لايمسك قوت يوم لغده وربما استسلف مايعطيه لمستحق وهذا خلق فيه على ما بلغنى منذ شب وقد كان فى بدايته على أثر مدروده لطنجة يهاديه أهل الفضل خصوصاً المنتسبين إلى طريق سلفه فلا يمسك من ذلك شيئا غالباً وساعة السرور عنده هى التى يبذل فيها ما بيده لغيره

حكى لى من أعتمد صدقه من أحبائه أنه رأى عليه فى بعض الأيام جلابية ظهر عليها اثر القدم فاشترى له أخرى وأتاه بها قال فبينما أنا معه بالطريق نظرت إلى يده فاذا الجلابية ليست معه فسألته عنها فقال أعطيتها لفقير طلبها منى قال فذهبت فى الحين واشتريت ثوبا وخطت له منه أخرى ثم جئت بها إليه

وألححت عليه أن يلبسها فى الحين فأجاب سؤالى فاستبشرت بذلك ولكن بعد يومين رأيته عاد إلى القديمة فلبسها فسألت عن السبب فقيل لى خرج من الدار فلقيه غريب ادعى أنه شريف وتبع السيديسأله إياها فساقه معه إلى الدار وخلع الجلابية فدفعها اليه ولبس القديمة

وجاء رجل يشتكى اليه بعض فقرائه وهو من الأشراف قائلا إنه اشترى منى زربية بثمن وذكر قدراً له بال وقال انها لكم ووعد أن يأتى بالثمن فلم يفعل فدخل إلى الدار وأخرج له ما كان حاضراً عنده ووعده بالباقى مع أنه لاعلم له بذلك ولا أمر بشراء الزربية وهذا خلق لا يعطيه الله تعالى إلا أحب الخلق إليه وبه وبأمثاله كان لهذا السيد الجليل مكانة عظيمة فى نفوس الناس لا سيا المنتسبين .

وحضر يوما الذكر مع أصحابه فتواجد حتى سقطت عمامته فبيعت بالمزايدة بين الفقراء بأكثر من ألف ريال عملابقاعدة الصوفية فى بيع الثوب الخليع حال التواجد فما أخذ من ذلك المال قرشا واحدا بل تبرع به على الفقراء إلى غير ذلك مما هو كثير ولا شك أن أمره قائم بالله وقد شاهدنا من أحواله ما هو غريب وعلى الأخص سروره وانشراح صدره حيث تكون يده فارغة فيعد ذلك من عظيم نعم الله عليه وهذا مقام عظيم لا يقوى عليه إلا من قواه الله ثم إنه لا يرى فضلا فيما يحسن به ولا يعظم فى عينه بل لا يراه إلا قليلا وان كان فى الواقع كثيرا بل الكثير والقليل عنده سواء كما شاهدنا ذلك من حاله .

ودخلت عليه يوما فالفيت بيده جزءاً من تفسير السيد محمد صديق حسن خان القنوجى أحد أمراء الهند فى وقته فلمح منى أنى استحسنته فلما عدت لمنزلى وجهه إلى بتمامه وهو فى أربعة مجلدات بطبع الهند وهو قليل الوجود بالمغرب كما أكرمنى مرة أخرى بكتاب مطالع الزهراء فى نسب بنى الزهراء وهو بخط ملوكى جليل وهو للعلامة النسابة سيدى الزكى العلوى ألفه لقريبه

السلطان مولاى عبد الرحمن بن هشام وهذا المؤلف هو المادة العظمى والعمدة الكبرى لأبى العلاء الفضيلي المتوفى فى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وألف فى كتابه الدرر البهية فى أنساب الحسنية والحسينية المطبوع بفاس فى مجلدين ا هـ .

وقال فى النسمات وكان رضى الله عنه على حال عظيم ووصف كبير فى الكرم والسخاء والبذل والايثار قد بلغ فى ذلك المنتهى ووصل إلى الدرجة القصوى يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ولا يلتفت إلى ما أعطى ولا يرى له قيمة لما كان عليه من الزهد فى الدنيا والاعراض عنها والنظر إليها بعين الاحتقار قد استوى عنده ذهبها وترابها .

وكان لا يرد سائلا سأله شيئا كائنا ما كان ان كان ذلك موجودا عنده وإن لم يكن عنده استدان واعطى أو وعد السائل ووفى بالوعد وهو فى كل ذلك يرى المنة والفضل للسائل .

وكان يطعم الجائع ويكسو العريان ويعين المدين ويغيث الملهوف وكان الجم الغفير من الناس معدودين فى عياله وتحت نفقته واحسانه لا سيما أهل تجكان من الشرفاء وقرابته فانهم كانوا يتواردون عليه فى أغلب الأيام فيسد خلتهم يشبع بطنهم ويستر أبدانهم ويزوج عزبهم ويدفع اصدقتهم ويدر عليهم الرزق الواسع ويتوسط فى قضاء حوائجهم بجاهه مع الحكام مراسلة ومكاتبة ، فكان هو المتكفل بجميع شئونهم ذكورا وإناثا صغارا وكبارا .

وكانت مائدته على الدوام مبسوطة للصادر والوارد وقلما يمر عليه يوم من غير ضيوف فقد كانت تتوارد عليه الجماعات من الفقراء وغيرهم من أقطار مختلفة للزيارة وغيرها فيكرم نزلهم ويحسن ضيافتهم ويطعمهم الطعام الجيد الواسع ويجالسهم ويسامرهم بالمذاكرة فى العلوم والمعارف العجيبة والأسرار

الربانية والفوائد الغريبة فى كل الفنون ويصبر نفسه معهم طول اقامتهم فلا يمل ولا يضجر حتى يغادروا حضرته اه . وكان اطعامه للضيوف فى الافطار يبتدىء من وقت الضحى ولا ينتهى إلا الى مابعد الظهر لتوارد الضيوف واحدا بعد واحد وجماعة بعد أخرى بحسب الوصول من البر والبحر فى الأوقات المختلفة وكلما وصل ضيف قدم له الطعام ثم يبتدىء طعام الغداء من قريب العصر إلى ما بعد العشاء بكثير .

وكان شديد الاهتمام بالضيوف والاعتناء بشأنهم فاذا قدم ضيف أو ضيوف لا يهدأ له بال ولا يستريح فى مكانه حتى يطعموا ويشبعوا ويشربوا الشاى وكان يأمر الخادمات أن لا يدخلن الطعام إلى الضيوف حتى يمررن عليه به فى محله ليراه خوفا أن يكون قليلا لا يكفى أو غير مناسب للواردين وربما وقف ينتظر وروده من المطبخ أو يستعجل دفعه إليهم خوفا من التأخر والعطلة .

وكان لفرط كرمه وجوده يحب الكرماء والاجواد على أى حالة كانوا ويرجو لهم الخير العظيم من الله تعالى ويعتنى بشأنهم ويفرح بهم غاية الفرح ويثنى عليهم ولو كانوا على غير قدم الاستقامة ويقول إن السخى محبوب عند الله تعالى ولا بد ان يرحمه الله ويختم عليه بخير إذ وضع فيه هذا الوصف الحسن الجميل ، ويستشهد على ذلك بالأحاديث الواردة فى فضل السخاء والأسخياء .

وكان يتعجب من حال أهل العلم وميلهم إلى الدنيا مع أن العلم يقتضى العمل به وقد أمر الشرع الشريف بالسخاء والبذل والايثار وذم البخل وحب الدنيا أشد الذم وكان يقول على سبيل المباسطة ثلاثة من عجائب الدنيا العالم كريم والحاج صادق والحمار أحمر .

وكان لا يطالب أحدا بحق له عليه بالغا مابلغ بل اذا جاءه عليه أخذه والا

لم يخاطبه فيه أصلا فكان يعطى بعضهم الشيء يبيعه من كتاب وغيره فيأخذ ثمنه أو نصفه فلا يكلمه فى ذلك ولما حج توقف غالب من كان فى رفقته لاتمام نفقة الحج فاستقرضوا منه وربما يرجعون إلى وطنهم فما أدى من الجماعة إلا اثنان أو ثلاثة والباقى لم يدفع ما عليه فما كلم واحدا منهم إلى أن لقى الله ولما توجه الى الحج اكترى داره التى كان يسكنها رجل من الأعيان الأحبة فاستمر فيها بعد رجوع الشيخ ثمانية عشر عاما ما دفع كراء ولا خطر ذلك له ببال واشترى دارا فى قرية كان نازلا بها مدة شهر فلما سافر تركها لفقرائه من أهل تلك القرية لتكون زاوية لهم يجتمعون فيها لذكر الله تعالى فتقدم واحد منهم وباعها وأخذ ثمنها لقضاء دين كان عليه فما كلمه ولا سأله عن الدار بعد ذلك وهو أيضا من الناس الذين استدانوا من الشيخ بالحجاز فلم يدفعوا ما عليهم وكم لهذا من نظير بل غالب معاملاته كانت من هذا القبيل وكل هذا ناشيء من سقوط الدنيا فى نظره مع الكرم والحلم وعظم حق المؤمن وأخوته عنده فانه كان من أشد الناس مراعاة لحقوق الأخوة والصحبة يستهين فى جانبها بكل شيء ويترك من أجلها كل حق من حقوقه وحقوق عياله ويذكر دائما الحديث إن الله يسأل عن صحبة ساعة .

وكان يعطى المحتاج من غير سؤال ولا ظهور أثر الحاجة عليه ، بل كان يفعل ذلك كشفا وفراسة فكثيرا ما يرسل للرجل شيئا وهو فى بيته من غير أن يكون ذلك الرجل معروفا بالسؤال والاحتياج فيوافق ذلك منه ساعة الحاجة والضرورة إلى القدر المرسل من الشيخ رضى الله عنه وكذلك يأتيه بقصد الزيارة فقط فيبادره الشيخ بالعطاء من غير سؤال ولا طلب .

وحدثنى الشريف محمد نور الدين قال كنت مع الشيخ يوما فجاء لزيارته بعض العلماء من أهل البادية فحادثه الشيخ مدة وسأله عن بعض كتب كان جلبها من القاهرة أيام قراءته بها ثم لما استأذنه للخروج قال له اصبر فقام

ودخل الدار وأتاه بعشرة ريال وقال خذ هذه هدية منا فصار الرجل يقبل يده ويقول أشهد أنك ولى لله تعالى فوالله ما جئت إلا لهذا القدر احتجت إليه ولم أجد ممن أطلبه وغلبنى الحياء أن أطلبه منكم .

وكان إذا أهديت له هدية ومعه جليس شاركه فيها أو دفعها اليه بتمامها وهو الأكثر من حاله سواء كانت الهدية كتابا أو ثوبا أو مالا وسواء كان الحاضر فقيراً أو غنياً محتاجاً أو غير محتاج ، بل كانت ترد اليه الكتب التى أوصى على شرائها من ماله من مصر أو فاس فاذا أدخلت اليه الخادم الكتاب من البريد وصادف أن يكون معه أحد من أهل العلم دفعه اليه ولو كان ذلك الكتاب موجودا عند ذلك الزائر .

وقال صاحب حادى الرفيق كنت مع الشيخ يوما فجاء فقير من فقرائه وهو عروس قد تزوج على يد الشيخ فاعطاه أربعة ريال هدية فرمى لى بريال منها وقال الجليس شريك فجعلته فى صندوقى تبركا به فكان سببا فى ادرار الرزق على ولا زلت والحمد لله فى سعة من ذلك الوقت اهـ .

فصـــل

وأما الحلم والعفو والصفح والاحسان إلى المسىء فهو فرد زمانه فيه على الاطلاق لا يوجد فى الدنيا من يدانيه فيه فضلا عمن يماثله أو يساويه فقد كان لا يتصور الانتقام لنفسه ولا يخطر له ببال ولا يعرف الغضب لنفسه وحقوقه أصلا سواء أوذى فى نفسه أو عرضه أو ماله أو ولده أو خادمه أو قرابته وسواء أقل الشخص من الاذاية أو أكثر أو بالغ أو قصر أو دام طول حياته أو اقتصر على برهة من الدهر بعيدا كان أو قريباً ضعيفاً كان أو قوياً كل ذلك عنده فى الحلم والعفو والصفح عنه واكرامه واحترامه واعظامه والبر به سواء فما كان مع من يبغضه ويؤذيه ويسعى فى هلاكه إلا كما يكون

الولد البار مع أبيه ، بل ما كان يبالغ فى الاحترام والمراعاة ويتحمل فى ذلك المشاق غالبا إلا مع هـذا النوع لأنه كان يعلم من المحب الصادق ثبوت المودة واخلاص المحبة الموجبة لسقوط الكلفة فكان يقوم بحقوق الأخوة والمحبة على قدر مقامه وما أكرمه الله به من جميل الأخلاق لكن لا يتكلف فيها كما يتكلف للعدو المبغض الحسود فانه لا يتأخر عن مقابلته ولو كان مريضاً ولا يصرفه إلى وقت آخر ولو كان مشغولا ويبادر إلى قضاء مطالبه واجابة رغبته من توسط وشفاعة وكل ما أتى اليه من أجله ،وحكاياته ونوادره فى هذا الباب لا تدخل تحت الاحصاء والعد لأن غالب من كان يعامله من أهل طنجة هم من هذا القبيل لكثرة حسدهم وعداوتهم وشدة بغضهم ونفورهم من أهل الفضل .

لا سيما الشيخ رضى الله عنه فانهم ما تركوا من اذايته إلا ما لم تصل طاقتهم اليه وقد ذكرنا فى فصل احترامه ومحبته لأهل العلم وفصل احترامه ومحبته لأهل البيت وغيرها حكايات من هذا القبيل .

ونورد فى هـذا الفصل بعض البعض مما لا يزال بذكرنا وهو قطرة من بحر ومثال معرف لما وراءه ولما كان عليه الشيخ رضى الله عنه فى هذا المقام .

فمن ذلك أن أحمد المرنيسى الطنجى وهو رجل مسن ذو لحية بيضاء وله حظ من العلم وتظاهر بالصلاح دسه الفرنسيون عندما حصل الخلاف بينهم وبين الشيخ وادعى أن الغيرة الايمانية وحب الانتقام والتظاهر بالعداء للكفار حثه على مخالطة الشيخ والكون من جملة أصحابه مع انه تجانى الطريقة وهم قوم لا يرون الفضل فى غيرهم وغير طريقتهم ويغضون كل الطرق الحقة إلا ذوى الفضل والعقل منهم فصار يلازم مجالسه ويرد اليه كل يوم صباحا ومساء ولا يفارقه إذا خرج لدعوة دعى اليها او غير ذلك ، بل صار ألزم له

من ظله ثم انتقل من دار سكناه البعيدة الى دار بجانب دار الشيخ تظاهرا منه بفرط الميل والمحبة والغرض من ذلك مراقبة الحركات والسكنات والوارد والصادر وكان كلما قابل فقيرا من الفقراء مديده الى حزامه فان وجد عنده مسدسا قال له هكذا الرجال وهكذا ينبغى أرنى من أى شكل هو وان لم ير عنده سلاحا لامه على ذلك ووعظه بالقرآن والحديث وبالغ فى ذلك تحريضا على شراء السلاح واظهارا للغيرة والايمان والواقع أنه يحصى من معه سلاح من الفقراء وما نوع السلاح الذى مع كل واحد منهم ويرفع ذلك الى أسياده فاغتر به الفقراء كافة وألقوا اليه مقاليد أسرارهم وصاروا يقولون عنه جبل الايمان والواقع أنه جبل الكفر والنفاق والجاسوسية وغرهم فى ذلك لحيته البيضاء وسمته وهديه وعلمه ومذاكرته بالقرآن والسنة وتقربه من الشيخ الذى كان لا يفارقه أكثر أوقاته وكان يكلفه ببعض المهام ويرسله شفيعاً لدى الحكام لا سيما الذى أرسله جاسوسا وكان الواسطة بينه وبين الفرنسيين فكان الشيخ رضى الله عنه يرسله اليه ظاهرا فى قضية أو شفاعة والواقع أنه كان يساعده على غرضه باطنا ويجعل له السبيل للاجتماع مع القائد الواسطة ليرفع له ما رآه من أخبار الشيخ والفقراء مما هو حق وباطل وصدق وكذب على عادة الجواسيس فاتفق أن عزم الشيخ على السفر إلى تطوان لقضاء بعض الاغراض المتعلقة بالقبائل الغمارية ومقابلة قوادها ورجالها بتطوان وعزم هذا الجاسوس على مصاحبته كما هو حاله فلما كانت الليلة التى صبيحتها سيكون السفر عقب صلاة الصبح بينما بعض الفقراء مارا فى منتصف الليل على باب دار القايد ابن عبد الصادق إذ رأى المرنيسى خارجا من الدار متقنعا مختفيا فلحقه الرجل ليتحقق منه فسلم عليه فأبلس ولا أدرى بم اعتذر له ثم بعد صلاة الفجر جاء إلى الشيخ وأخبره الخبر وكان الرجل من قرابة الشيخ فقال له الشيخ رضى الله عنه نحن نعلم ماهناك ولكن استر الرجل واكتم أمره لاتذكره لأحد من

الفقراء وكان قبل هذه المدة أرسل إليه خفية بعض كبار الحكام المسلمين الذين فيهم غيرة يقول له لا تغتر بالمرنيسى فانه جاسوس بواسطة القائد ابن عبد الصادق فما زاده كل هذا إلا اكراما وإجلالا وبرا واحتراما حتى صار يرسل إليه وقت الطعام ليتناوله معه ومع ضيوفه وصار يشترى له الأضحية فى العيد ويتحفه بالهدايا الثمينة من ملبوس وغيره وترتب عليه مرة دين كبير فاداه عنه ، كل ذلك وهو ظان أن أمره مستور عن الشيخ والشيخ متحقق من حاله وعارف بأمره من طرق متعددة إلى أن أراد الله فضيحته وهتك ستره فى قضية طنجة المشهورة التى انفردوا بها بين العالم بأسره وهى اجتماعهم عن بكرة أبيهم باذن من القائد عبدالسلام بن عبدالصادق خادم الفرنسيين وشهادتهم فى عريضة قدموها للسلطان ظناً منهم أنها ستكون السبب فى القضاء على الشيخ وابعاده من بلدهم التى لم يألفوا فيها رؤية الفقراء والعلماء والفضلاء فضاقت صدورهم من ذلك وأحبوا البقاء على ما ألفوه فكان المرنيسى المتظاهر بعداوة الفرنسيين نحو السبع سنين والفانى بزعمه وتصنعه فى الشيخ والفقراء وخدمة الدين من أول الواضعين أسماءهم فى العريضة فلما انفض المجلس جاء جماعة من الشاهدين الواضعين أسماءهم بكل وقاحة ونذالة إلى الشيخ فأخبروه بما صنعوا كالمعتذرين بأنهم فعلوا ذلك خوفا من القائد والخروج عن دين أهل البلد وأن من جملة من وضع اسمه المرنيسى الذى كان يقال عنه جبل الايمان ثم بعد برهة جاء هو يجرى على عادته ونفاقه يسب أهل طنجة وقائدهم الفرنسى وما فعل من العريضة ففاجأه بعض الفقراء بالباب قبل أن يطلع إلى الشيخ بأنه قد سبقك فلان وفلان وأخبروا أنك من جملة الواضعين أسماءهم فقال نعم لما عرضوا على تلك العريضة وقرأت ما فيها كتبت : هذا بهتان عظيم فقالوا له لو كانوا صبيانا يلعبون لما استطعت أن تكتب لهم هذا فكيف بقائد البلد وجميع أهلها وسيرفع ما كتبوه إلى السلطان ثم حضر

أيضاً جماعة آخرون فصرحوا بأنهم لما أنزلوا خطوطهم رأوا خطه بالموافقة ولم يروا ما قال فعند ذلك أنزل الله فى قلبه الدهش والرعب والخوف من الفقراء فصار الشيخ يطمنه ويقبل عذره ويوجه فعله وهو فى كل ذلك غير آمن ولا مطمئن بل فارق البيت الذى كان فيه بجوار بيت الشيخ وطلع إلى بستان بعيد من البلد واختفى به ، ثم لم تطمئن نفسه حتى خرج من طنجة وقصد مدينة الرباط يسكنها ونفاه الله تعالى من غير ناف معاملة له بما قصد به الشيخ كما نفى القائد صاحبه الذى لا يزال منفيا إلى الآن ، أما المرنيسى فأنزل الله به من الذل والمهانة والفقر والحاجة ما يستحقه المنافقون أمثاله إلى أن مات وهو جلاس بحمام وشتت الله شمله وقطع دابره من طنجة نسأل الله السلامة والعافية من النفاق والكذب والخيانة وعداوة أهل الله ورزقنا حسن الفهم عنه آمين .

ومن ذلك أن رجلا يعرف بالحجراوى أرسله بعض الظاهرين فى الوقت بالزعامة والتقدم وارادة الوصول إلى المملكة ليقتل الشيخ لأنه كان يظن أن أمره لا يتم مع وجود الشيخ الذى كان دائما يعارض فى ولايته على القبائل لا سيما القبائل الغمارية لفرط جوره وظلمه حتى كان يقال فيه حجاج المغرب فجاء هذا الرجل وادعى أنه فر من ذلك الظالم الذى أراد قتله فآواه الشيخ وأنزله بالباب مع الفقراء الملازمين وبقى مدة يتحين الفرص ثم لما طالت به المدة أجرداراً قرب منزل الشيخ وسكنها ثم صار يختفى يومين وثلاثة يذهب فيها إلى صاحبه ثم يعود والشيخ على علم من ذلك وهو ينفق عليه ويواسيه إلى أن سلط الله عليه رجلا ضربه بخنجر عدة ضربات أثخنه بها جراحا فمرض وتغيب فافتضح وعرف حاله بورود من أخبر بحقيقته فلم يعد إلى أن مات .

ومن ذلك أن عبد الكريم بن ادريس الطنجى كان من عدول طنجة وأبناء أعيانها وكان من عداوة الشيخ والمجاهرة بها على ما عليه أمثاله فأكثر

من شهادة الزور وارتكاب الجرائم فطرد من الشهادة فافتقر وساء حاله ثم صار يتردد على الشيخ فيواسيه ويكسوه فلما اشتهر بكثرة تردده اليه ومجالسته إياه جعلته الادارة جاسوسا يأتيها بأخبار الشيخ فكان يفترى عليه ويلصق به من الجرائم السياسية ما يناسب عداوته الباطنية وقلة دينه الظاهرة ثم صار يصرح بذلك للشيخ ويقول اننا نأكل الخبز بالكذب عليك فيقول له الشيخ لا تؤذ أحدا من المسلمين ولك الاذن منا أن تنسب إلينا ما تشاء وجاء إليه يوما فكساه جلابة جديدة اشتراها من دكان وألبسه إياها فخرج بها وذهب إلى الادارة ، وقال لهم الآن جئتكم من الشيخ تركته وقد جاء إليه السفير الفلانى وأبرم معه كذا وأمارة ذلك انه كسانى هذا الثوب وجاء إليه يوماً آخر يطلب منه ان يكتب له كتابا لرئيس الجواسيس ليزيد له فى أجرة الجاسوسية فكتب له ذلك ففرح بالكتاب الرئيس المذكور ورفع من مرتبه وكلما ازداد الشيخ إليه إحسانا ازداد هو إليه والى دائرته إذاية واستمر معه على حالته الى ان لقى الله وبقى الرجل يعامل انجاله بما كان يعامل به الشيخ نحو اربعة اعوام إلى ان جن ونقل إلى المارستان ومات به على شر الأحوال ووقع يوم ثالث دفنه ما فيه عبرة وذلك انه اتفق أن مات رجل يوم موته هو لكنه دفن بعيدا عنه فى مقبرة أخرى فلما كان يوم ثالثه أرسل بعض قرابته شيئا من الطعام لحملة القرآن ليقرأوه على قبره ويأكلوا الطعام فأخذه الحاملوز إلى قبر ذلك الرجل الذى مات معه وأنزلوه عنده فاجتمع عليه الطلبة وقرأوا وأكلوا الطعام وعند فراغهم منه وصل طعام صاحب ذلك القبر من عند أهله فأكلوه أيضاً وقرأوا عليه ثانية وهكذا صرف الله عنه بركة قراءة القرآن العظيم عند قبره .

ومثله رجل يسمى عبد السلام كريبش قربه الشيخ وأحسن اليه وآواه نحو سبعة أعوام ثم تعلق به أن يتوسط له فى وظيفة مع الحكام ففعل ثم صيره جاسوسا فآتى إلى الشيخ ما لا يتصور من أنواع الاذاية والافتراء ولا يزال

حاله كذلك مع أنجاله إلى اليوم قطع الله دابره وعجل بهلاكه وراحة المسلمين من اذايته .

ومثل هؤلاء من الجواسيس الذين كانوا يتواردون عليه ويعاشرونه ويجالسونه وينتفعون به يزيدون على الخمسين ومنهم من كان يباسطه الشيخ ويصارحه بذلك ويقول له لا تتهول من هذا بل اشتغل وخذ من الكفار ما يعود عليك وعلى عيالك بالنفع بشرط أن لا تؤذى مسلما ولا تكذب على احدغيرنا ولو لا الحياء من الله تعالى وارادة الستر على هؤلاء لسمينا منهم جماعة لا يزالون على حالتهم ومنهم من أنزل الله بهم عقابه وصرفهم عن هذه البلدة شر مصرف وإلى الله عاقبة الأمور .

ولما رحل إلى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة كتب فى اليوم الذى اصبح فيه بالقاهرة رجل رحمانى يدعى أنه وزانى مقيم بالأسكندرية مقالا فى جريدة نسب فيها الشيخ رضى الله عنه إلى أمور قبيحة يريد بذلك اسقاط منزلته عند المصريين ولم تمض ساعات على ظهور المقال حتى عرف الشيخ أنه للرجل المذكور ثم إنه بعد يومين شد الرحلة من الاسكندرية لمقابلة الشيخ والسلام عليه فأكرمه وفرح به غاية كلما كان يتردد اليه طول إقامته بالقاهرة ثم إن الرجل نزل الى الاسكندرية ومرض فلما نزل الشيخ اليها فى طريق عودته الى المغرب سأل عنه فقيل له انه مريض فقال لا بد من عيادته فذهب اليه يعوده مع أنه لم يسبق له به معرفة ولا رآه قبل هذه المرة التى فاتحه بالاذاية قبل أن يجتمع به ومن مرضه ذلك كانت وفاته سامحه الله ورحمنا وإياه .

وذهب مرة بعض القضاة الذين كانوا يجاهرون بعداوة الشيخ الى الفرنسيين وقال لهم كيف شوشكم أمر ابن الصديق وأصحابه ادفعوا الى خمسمائة عسكرى وأنا ألقى القبض عليه وأهدم زاويته ثم اتفق بعد ذلك أن اجتمع الشيخ به فقال بلغنا أنك قلت كذا ولو جئت إلى لذهبت معك إكراماً لك دون أن يكون معك عسكرى واحد فخجل القاضى وتاب

وبالجملة فحال الشيخ رضى الله عنه فى هذا البـاب من أعجب الاحوال وأخباره فيها من اغرب الاخبار وان كان كل حاله عجبا ؛

ومن هـذا القبيل ما وقع له مع بعض محبيه من العلماء وذلك فى قضية عظم أمرها لدى الحكام وكان ذلك المحب مطلعا فيها على الحقيقة ومشاهدا للواقع فلما اجتمع الشيخ بمندوب السلطان وعرفه أن الامر خلاف ماهو عندهم وأن الحق بيده استشهد بصديقه العالم المذكور وكان مجلس المندوب غاصا بدائرته من العلماء والكتبة فلما حضر ذلك الصديق أنكر أمام الشيخ أن يكون عنده علم بما قال. فسكت الشيخ وفهم ان الرجل خاف لأنه كان من الموظفين فلما رجع الى منزله أتاه ذلك العالم المحب وقال سامحنى فيما فعلت فانى أعلم انك تقبل معـذرتى وهم لا يقبلون فما زاده ذلك إلا محبـة فيه وإخلاصا لصداقته وتكاد هذه القصة تكون اعجب من كل مامضى لأنها مسقطة لجاه المرء مصرحـة بكذبه ومبطلة لدعواه فى الموطن الذى يجب فيه انتصاره واثبات حجته ودعواه .

قال فى نبـذة التحقيق وأما حلمه وصفحه عمن كان يؤذيه فبالمكانة القصوى والمنزلة الشماء العليا لا يحقد على أحد ولاينتقم من مؤذيه ولو تمكن منه او وجد اليه سبيلا وحسبك مثالا اغضاؤه عمن ساعدوا من ثاروا عليه حتى من كانوا يتظاهرون بالاختصاص به والنسبة اليه وفى الحقيقة كانوا معه وهم عليه وانى لأعرف جلهم عيناً واسماً وصفة ووسما .

ولو كان هذا موضع القول لاشتفى

فؤادى ولـكن للمقال مواضع

فـكانوا فى صدور من شهدوا فيه وهم زهاء المـائتين ولم تـكن شهادتهم إلا بافتراآت واختلاقات وتزويقات وتنميقات تولى كبرها من هو الآن لا رفيق له سـوى عمله وليس له واق من جزاء سوء فعـله إلى آخر ما قال .

فصـــل

وكما كان الشيخ رضى الله عنه متخلقا بهذا كذلك كان يدعو إليه ويحث دائما عليه فلا يأتيه مظلوم يشتكى غيره فى نفس أو عرض أو مال إلا ويأمره بالصبر والاحتمال وكف الأذى ومقابلة الاساءة بالاحسان ويقول للمشتكى أطع الله فيمن ظلمك وتعدى عليك بالاعراض عنه وتحمل الأذى منه من حيث عصاه فيك بتعديه عليك فانه ما قابل أحد من عصى الله فيه بمثل أن يطيع الله فيه ويمتثل أمره بالعفو والاحسان ويفوض أمره الى الله تعالى وهو سبحانه يتولى نصرته والانتقام له بما لا يقدر هو على مثله مع سلامة الدين واكتساب الاجر والمحمدة ويقول للمشتكى أطع أمرى بالاعراض عنه وجرب ما أقوله لك فان لم تر انتقام الله تعالى لك من عدوك فلمنى على ذلك فان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا فاذا أحسنت العمل باتباع السنة والعفو والصفح فلا بد أن يتولاك الله وينتقم لك من عدوك .
ويؤيد هذا بما ورد فى أخلاقه صلى الله عليه وسلم من الأحاديث مع حكاية الصالحين فلا يقوم المشتكى من بين يديه إلا وهو فرح مسرور قد طابت نفسه وأعرض عن صاحبه مفوضا أمره لله وربما سامحه ابتغاء مرضاة الله .

فصـــل

وكان رضى الله عنه فى التواضع بالمنزلة التى يكون عليها أمثاله من أكابر العارفين والعلماء العاملين لا يعرف الكبر والعظمة ولا يرى لنفسه امام أهل الفضل والدين مرتبة يخدم الضيوف بنفسه ويقدم لهم النعال بيده ويجالس المساكين وذوى الخصاصة والأملاق والثياب الوسخة ويتذاكر معهم فى شئونهم الخاصة حتى كأنه واحد منهم ويخرج بالثياب المتواضعة ولا يلبس

الثياب الرفيعة الحسنة ولو أهـديت إليه ولا يتميز فى الجـلوس عن اخوانه ولا يحب التميز عن الناس فى شىء أصلا .

قال فى نبـذة التحقيق وأما تواضعه فـكان بالمكانة التى كنا نستحى منه فيها يسبق زائره والمسلم عليه بتقبيل يده أو على الأقل تقبيل رأسه . ولا سـيما ان كان الزائر من أهل الفضل والدين وربمـا قدم النعل بيـده الكريمة عنـد وداعه ويبدى من مخاطبـاته لى بخطه المبـارك ما يوقعنى فى الخجل حين أقف عليه وربما شكـكنى فى نفسى حينما أراه مبالغا فى اطرائى لـكنى أعود لعشى حينما أتذكر أن ذلك كان دأبه مع غـيرى والحقيقة أن ذلك من تنزله مع الـكبير والصغير والجليل والحقير ، والـكريم الذى حباه هذا الوصف الجميـل والخلق السنى الجليل الذى لا يقـدر عليه الا سادات الناس هو الذى جعـله من أفاضلهم رضوان الله عليهم أجمـعين وعنـا بهم آمين اهـ .

وقال فى النسمات وأما تواضعـه رضى الله عنـه فـكان تواضع المحققين من أهل البـاطن وأرباب القـلوب ، ممن فنوا عن أنفسهم وبقـوا بربهم وشهدوا عظمة علام الغيوب ، فـكان يتواضع مع الـكبير والصغير ويخفض الجناح للضعيف والوضيع والحقير خصوصا أرباب الخمول ورثاثة اللباس ، ممن لا يفتقدون إذا غابوا ولا يعرفون إذا حضروا فـكان يعاملهم بمكارم الأخلاق ومزيد الاقبال والتعظيم والاحـترام فيلين لهم الـكلام ويظهر لهم البشاشة ويصرف لهم الوجهـة وينشر عليهم رداء الاحسان ويؤانسهم ويلوا كلهم ويحادثهم بمـا يدخل عليهم السرور ويزيل عنهم الوحشة والنفور وترى منه معهم من البشر وطلاقة الوجه وانشراح الصدر وطيب الـكلام مالا تراه منه مع غـيرهم وهكذا كانت معاملته أيضا مع آل البيت والعلماء وأهل الفضل والدين يعظمهم ويجلهم ويتواضع معهم ويتصاغر دونهم ويغيب عن نفسـه فى رؤيتهم وينسى حقوقه فى حقوقهم بل لا يرى لنفسه وجودا

معهم . وبالجملة فتواضعه رضى الله عنه تواضع العارفين وخضوع الاولياء الكاملين لاتكلف فيه ولاإتعمل ولا تخلق بل كان خلقا ممزوجا بذاته ، وهو التواضع الحقيقى الناشىء عن شهود عظمة الحق جل جلاله الذى يغيب صاحبه عن شهود تواضعه وهو وراثة نبوية من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم كسائر أخلاقه اه .

قلت : ومن تواضعه أنه كان لايؤم الناس فى المحافل والمجالس ، بل يقدم من حضر من أهل العلم والفضل حتى من الطلبة الصغار فى السن إذا لم يوجد غيرهم . وكان لايحب من يمدحه بالنظم والنثر ولا يترك عنده قصيدة قيلت فى مدحه الا نادرا ولا يظهر ذلك لأحد ولا يذكره قط ولو كان يترك تحت يده ما قيل فيه من القصائد والامداح ولم يحرقه لجمع من ذلك الشىء الكثير .

وكان لا يلقن العلماء وأصحاب المظاهر وان طلبوا ذلك منه وألحوا عليه فيه بل يتواضع معهم ويقول أنتم غير محتاجين إلى أمثالنا ويعظم من شأنهم ويصغر من نفسه حتى يقوم ذلك الشخص من عنده وهو معتقد أنه حائز لكل فضيلة وكمال ، وهذا خلق غريب بالنسبة للمتمشيخين من أهل العصر فانهم يفرحون غاية بكثرة التاقين بل يدعون الناس إلى الأخذ عنهم وربما لقنوا الرجل وهو كاره لذلك ودعوه إلى ترك ما أخذه عن غيرهم قبلهم رغبة فى كثرة الاتباع وحب الرياسة والظهور ، وكذلك كان لا يتظاهر بالكرامات تواضعا وسكونا ورغبة فى الخفاء وعدم الظهور الا ما أظهره الله تعالى على يديه من غير اختيار ولا قصد إلى إظهاره بل كان يذم ذلك ويعده من الرعونات والنقص فى مرتبة الكمال .

قال فى حادى الرفيق بعد حكاية كرامات صدرت على يديه ما نصه مع أنه رضى الله عنه كان لا يتظاهر بكرامة ولا يميل إلى شىء من ذلك .

وكان يقول : الولى إذا كان يريد ظهور الكرامة على يده فهو لا يزال ناقصاً ، وكثيراً ما كان يقول لنا فى مجلس المذاكرة نحن لسنا بشيوخ وأنتم

لستم بفقراء وإنما نحن مجتمعون للتعاون على عبادة الله تعالى وذكره على قدر الطاقة وبرود همة أهل الوقت اهـ .

ومن تواضعه أنه كان كثير الاستشارة مع أصحابه بل وخدمه وأولاده الصغار فى أغلب شئونه ولا ينفرد برأيه فى التقدم إلى شىء وإمضائه دون مشورة إلا فى القليل النادر مع أن الناس كانوا يتواردون عليه أفواجاً للمشورة معه فى أمورهم المهمة فيرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم لا من طريق حسن النظر وإصابة الرأى فقط بل ومن جهة الفراسة الايمانية والكشف النورانى فكثيراً ما كان ينهى أقواماً عن مزاولة أمور هى فى الظاهر وما يبدو للناس فى غاية الموافقة للصواب ثم بعد ذلك يتضح منها ما لم يخطر لأحد على بال وربما أشار بما يثقل على النفس ويظن أنه بعيد عن النجاح فيكون فيه الخير العظيم والبركة التامة وقد تأخر قوم عن إشارته بعد استشارته فما أفلحوا ولا أنجحوا بل وقعوا فى المهالك والمعاطب ومع هذا فكان هو لا يقدم على أمر إلا بعد استشارة امتثالا لأمر الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما كان يلازم الاستخارة ويحث عليها دائماً ويبالغ فى الأمر بها . ولا يحب من أحد أن يتقدم لأمر هام دون أن يقدمها بين يديه ، لا سيما أهل العلم والنسبة إلى طريق أهل الله .

فصـــل

ومن تواضعه وحبه للخفاء وإيثاره الخمول على الجاه والرياسة والظهور اختياره السكنى بمدينة طنجة على غيرها من المدن ومفارقته وطنه الذى لو أقام به مع ما لوالده وأسلافه من الشهرة والجاه ونفوذ الكلمة ومع ما أكرمه الله به من المواهب والعلوم والأسرار والمعارف وجميل العشرة ومكارم الأخلاق لحصل له من

الشهرة والجاه والخير العظيم وإقبال الخلق ما لم يحصل لغيره وقد تعلق به أهل فاس وكذلك أهل الاسكندرية والتزموا ببناء الزاوية والقيام بجميع الشئون فلم يقبل إلا أن يقيم بالبلد الذى لايعرف فيه قدره والذى يزداد أهله له عداوة وبغضاً ومحاربة وحسداً كلما رأوا زيادة فضل الله عليه وبعد صيته واشتهار ذكره وعظمة جاهه كما هى عادتهم مع جميع أهل الفضل من الأشراف والأولياء والعلماء فقد أقام الشيخ رضى الله عنه بين أظهرهم خمساً وثلاثين سنة حييت فيها بلدهم بعد موتها واشتهر ذكرها بعد خمولها وعمرت بذكر الله وذاكريه بعد خرابها وقصدها الأشراف والعلماء والفضلاء والأولياء بعد أن لم يكن يقصدها إلا الشرطية والطوبجية وصائدوا الأسماك من الأسبان والبرتغال وصار يسمع فى أزقتها ذكر الله تعالى صباحا ومساء بعد ان لم يكن يسمع بها إلا زمارة الطوبجية وأصوات السكارى ووقع المجاديف وفشا فيهم العلم والفضل وقام فيهم سوق الأدب والدين فكانوا أخسر الناس صفقة فيه وأتى اليهم من المعروف وأنواع البر والاحسان فى الحسيات والمعنويات مالو فعله مع أهل قطر كافر لأسلموا فلم يكد يخلو فرد منهم من وصول بر الشيخ وإحسانه اليه من شفاعة ووساطة فى وظيفة أو معالجة أو مساعدة أو اصلاح أو قراءة علم أو غير ذلك مع ماكان يدافع عنهم هو وأصحابه لدى الحكومة يريد بذلك حفظ حقوقهم ورفعة قدرهم وإبقاء حرمتهم فلم يزدهم ذلك إلا حقداً عليه وحسداً له وبغضاً فيه وسعياً حثيثاً فى إذايته وإطلاق اللسان فيه بما هم متصفون به ثم اجتمعوا كلهم بدعوة قائدهم وكتبوا عريضة قدموها للسلطان وغاب من أنزل بهاخطه تلامذته فى العلم والطريق أو ممن دخلوا فى صف الأناسى واستنشقوا رائحة الوجود بوساطته وشفاعته بعد أن كانوا مساوين للعدم من كل الوجوه وقصدوا بذلك نفيه من البلد هو وأصحابه وأرسل اليه بعض أعيانهم يقول اخرج عنا من بلدنا ودعنا فى أمن وعافية فدارت عليهم الدائرة وسقطوا فى حفرة مكرهم وابتلوا بما صاروا به متميزين عن سائر مدن المغرب من تشتيت الرأى وتفريق

الـكلمة وفرط الجبن مع الفقر والحاجة والذلة والمهانة ونفى الله من تولى كبر ذلك وأخرجه من وطنه وأنزل بهم عقوبته على عدم شكر نعمته وجعلها سارية فى عقبهم إلى يوم القيامة على أن الله تعالى سلك بالشيخ فى ذلك مسلك سلفه الأولياء الأكابر أفراد الأمة المحمدية وورثة الأنبياء والمرسلين كما هى سنة الله تعالى فيهم .

قال القطب الـكبير مولانا ابو الحسن الشاذلى رضى الله عنه جرت سنة الله تعالى فى أنبيائه وأوليائه أن يسلط عليهم الأذى فى ابتداء أمرهم بإخراجهم من أوطانهم ورميهم بالبهتان والزور ثم تكون الدالة لهم آخراً ان صبروا قال ولما علم الله عز وجل ماسيقال فى أنبيائه وأصفيائه قضى على قوم بالشقاء فجعلوا لله تعالى زوجة وولداً وقالوا يد الله مغلولة وقالوا ان الله فقير ونحن أغنياء حتى إذا ضاق ذرع النبى أو الولى من كلام قيل فيه نادته هواتف الحق تعالى أما لك بى أسوة فقد جعلوا لى زوجة وولداً ونسبوا إلى مالا يليق بجلالى وعظمتى وأنا خلقتهم ورزقتهم فلا يسع ذلك النبى أو الولى إلا التأسى ولذلك تحمل الأنبياء والأولياء مايرميهم به قومهم من الزور والبهتان والجنون والسحر وغير ذلك مما هو مشهور فى الـكتاب والسنة اه

وحكى العارف تاج الدين ابن عطاء الله عن أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما أنه كان يقول لايكمل عالم فى مقام العلم حتى يبتلى بأربع شماتة الأعداء وملامة الأصدقاء وطعن الجهال وحسد العلماء فان صبر على ذلك جعله الله اماماً يقتدى به اه .

ومن الغريب أن بعض زعمائهم فى الأوصاف والأخلاق المذكورة قال فى هذه الأيام وهو فى مجلس جرى فيه ذكر الشيخ رضى الله عنه لو أقام السيد بباريز المدة التى أقامها بطنجة لـكان له شأن عظيم ولـكنه أقام بين من لايعرف قدره

فصــــل

وكان رضى الله عنه شديدالحياء لايكاد يكلم إنسانا وهو ينظر إليه إلا فى ساعة المذاكرة العلميــة أو مع من هو من خاصة أحبابه وجلاسه ولا يواجه أحداً بمكروه ولا يطالبه أحــد فى شىء فيرده أو يمتنع من اجابته إلى مراده ويتحمل ضرر الثقلاء وكثرة كلامهم وإطالتهم المجلس ولا ينصرف عنهم حتى يكون الواحد منهم هو المنصرف بنفسه ولا يعارض أحـداً فى قول ولا يرد عليه كلاما ولا يكذبه فى خبر أو حكاية ولو تحقق كذبه .

قال فى نبذة التحقيق كان أشدحياء من العذراء فى خدرها فـكثيراً ماتلقاه ولا تكاد تراه إلامطرقاً بعينه ورأسه يكلمك وربما لاترى داخل عينيه .

وكان لايحضر المحافل العمومية لا سيما أواخر عمره فاذا حضر كان على غاية من الأدب والـكمال والتواضع فى جلسته وهيأته وكلامه .

وكان على أدب كامل مع الله تعالى ومع شريعته المطهرة وسنة نبيه المشرفة ومع جميع عباد الله تعـالى فى سكناته وحركاته فلا يخرج عن طريقة الآداب الشرعية فى شىء اصلا فلا يمد رجليه لا مع الناس ولا منفرداً وحده لا فى حالة الصحة ولا فى حالة المرض ولا كان ينام على ظهره ويجعل إحدى رجليه على أخرى ولا يجلس جلســة المترفين أو يتكىء على احد جنبيه وإنما كان يجلس متربعاً أو محتبياً لا سيما وقت المطالعة .

وكان يتأدب مع كتب العلم فى الوضع والترتيب فلا يضع كتاب نحو أو أو تاريخ أو ادب على كتاب فقه او تصوف فضلا عن حديث او تفسير بل كان يضع كتب التفسير العليا ثم التى تليهـا كتب الحديث ثم الفقه والتصوف ثم الـكلام والأصول ثم النحو واللغـة والأدب والتاريخ وإذا رأى مجلد تفسير

او حديث تحت مجلد نحو او تاريخ بادر فى الحال ووضعه فى اعلى الكتب
وقد دخلت يوما بمصر على بعض العلماء الذين يدعون العمل بالسنة فوجدت بين يديه كتباً كثيرة فيها النهاية لابن الأثير فى غريب الحديث والقاموس وغيرها وكان يصحح تاريخ الخطيب عند طبعه وإذا هو واضع صينية القهوة بأوانيها فوق تلك الكتب يشرب عليها القهوة فنهيته عن ذلك فقال لم أحسب ان فيها شيئا ولا ان فيها اهانة .

ودخلت يوماً على بعض من يدعى أنه شيخ للطريقة الخلوتية فاذا هو رجل جالس على كنبة وفارش تحت رجليه كثيراً من الجرائد واضع رجليه عليها مع انها لا تخلو من مقال فيه آية أو حديث او من اسم الله على الأقل .

فصـــل

وكان رضى الله عنه سليم الصدر والنية كثير التصديق حسن الظن يسلم لكل مدع دعواه ويصدق كل قائل فيما يقول لا يكاد يخطر بباله تهمة احد بكذب او تدليس او غش أو خديعة ونفاق مجبولا على ذلك بطبيعته وفطرته التى فطره الله عليها مع التخلق بالأخلاق النبوية فى ذلك والاوامر الشرعية بحسن الظن والحث عليه والترغيب فيه .

وكثيراً ما كان يرد عليه المتمشيخون فيدعون عنده بالمقامات العالية والكرامات الكثيرة وحضور الديوان ونحو هذا فيصدقهم فيه ويعاملهم على مقتضى دعواهم من الاجلال والاكرام اللائق بصاحب تلك المنزلة وإن كان كاذباً فيها بمقتضى شواهد الحال فضلا عما وراء ذلك وما علم أنه امتحن احداً فى مقام ادعاه او رد عليه ذلك لا فى حضوره ولا فى غيبته بل يسلم ذلك ولو تحقق فى نفسه بكذبه بل كان يعتنى غاية بالستر على الكذابين المدعين ويذب عنهم ويتأول ما صدر منهم مما يخالف اصول الطريقة او يباين حال العامة من الناس ويجيب عن ذلك بأجوبة ويعتذر عنهم بوجوه من الأعذار ما لم

يكن ذلك مخالفاً للشرع خارجاً عن حدوده . وقد ذكرت فى الأصل عدة حكايات وقعت له فى هذا الباب .

وكان ستيراً على أهل المعاصى فاذا اطلع من أحد على شىء لا يفضحه ولا يذكر ذلك لأحد بل يغض الطرف عنه كأنه لا علم له بشىء وإذا اقتضى الحال زجر الفاعل عن ذلك الفعل دعاه فى خلوته من حيث لا يطلع عليه أحد وزجره ونهاه حتى كان كثير من خدمه وأصحابه وأولاده يخافون من اطلاع أحد عليهم فى شىء ولا يخافون من اطلاع الشيخ لتحققهم بستره عليهم وعفوه عن جنايتهم دون غيره .

وكان يقوم بحقوق أصحابه وإخوانه من جميع الوجوه ولا يتشوف هو لأن يقوم أحد بحقوقه ولا يعتب على أحد فى تضييع حق من حقوقه أو إساءة أدب معه أو هفوة صدرت منه وإن عظم أمرها وتكرر فعلها ويقول لمن يذكر له شيئا من ذلك إن الناس اليوم يرون لهم حقوقاً على غيرهم ولا يرون لغيرهم حقاً عليهم . فالواجب علينا أن نقوم بحقوقهم امتثالا للسنة المحمدية وعملا بأخلاق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ننتظر من أحد أن يقوم لنا بحق وإلا قاطعنا الجميع وأعرضنا عن الكل وعاديناهم لأن هذا وصف غالبهم وما بذلك أمرنا الله .

وكان يقول : الناس كلهم يحتاجون الينا ونحن نرجو الله تعالى أن لا يحوجنا إلى أحد منهم .

وكان إذا كثرت عليه الشكايات بالفقراء وتكررت لديه الأخبار عنهم بما يسوء يقول لم يبق اليوم فقراء وإنما هم قفراء بتقديم القاف على الفاء .

ويقول فى حقهم أيضاً : إن الفقراء فيما مضى كانوا فقراء بلا بطون ثم صاروا فقراء ببطون ، وأما اليوم فبطون بلا فقراء .

وكان يأسف لموت أحد من إخوانه فى الله ومجالسيه ويبكى بكاء شديداً

لا سيما فى أواخر عمره فانى رأيته يبكى عنـد موت بعضهم بكاء شـديداً وينتحب نحيباً يسمع من بعيد كما يبكى الرجل على والده وأمه وأعزأولاده لـكثرة محبته وألفه باخوانه وجلاسه .

وكان يحب موافقة السنة فى كل شىء ويسعى جهـده أن يحصل له كل ما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم ويحث على هـذا وينبه للعمل به ويحكى عن الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربى رضى الله عنه أنه أخـذ يوماً طفلا فبال عليه ففرح بذلك أو قال أولم لأجل ذلك وقال الحمد لله هذه آخر سنة لم نـكن أدركناها قد حصلت لنا الآن ببول هذا الطفل لأن النبى صلى الله عليه وسـلم أتى بطفل رضيـع لم يطعم فبـال عليه وكان الشيـخ يحب كل ما كان النبى صـلى الله عليه وسلم يحبه من الأطعمة كالدباء ونحوه ممـا ورد فى السنة وكذلك كان يحب المعاملة مع اليهود والاسـتدانة منهم لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعاملهم ويستدين منهم ، ومات ودرعه مرهونة عند يهودى .

ولمحبته فى الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم وموافقة سنته اختار الله له موافقته فى كثير من أموره بغير قصد منه واختيار . فتزوج قبل وفاته بشهر ونصف أو نحوه بزوجة لم يدخل بهـا لأنها زفت إليه فى رمضان وكان الضعف ومرض القلب الذى مات منـه قد اعتراه مع الصيام إلى أن مات فى سادس شوال ، وكذلك تزوج النبي صـلى الله عليه وسلم قيـلة بنت قيس الـكندية قبل وفاته بشهرين وقيل فى مرض موته وقيل فى ربيـع الاول ولم يدخل بها لتأخر قدومها عليه إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى صـلى الله عليه وسلم .

ولمـا حج الشيخ رضى الله عنـه كانت وقفته بالجمعة كما كانت وقفة النبى صلى الله عليه وسلم مع أن الشيخ خرج للحج قبل ظهور ذلك لأن خروجه من وطنه كان فى شعبان كما سبق .

وتوفى الشيخ رضى الله عنـه وعليه ديون كما توفى النبى صـلى الله عليه وسلم وعليه دين كذلك .

ولم يتزوج على زوجتـه الأولى إلى أن توفيت ثم أخـذ بعدها زوجات متعددات وكذلك فعل النبى صلى الله عليه وسلم لم يتزوج على خديجة رضى الله عنها إلى أن ماتت فأخذ زوجات متعددات .

وكانت زوجته الأولى فاضلة عاقلة صالحة ذات مناقب وكرامات كما كانت خديجة رضى الله عنها ذات مناقب جمة وفضائل عديدة .

وكان إذا نابه شيء فزع إلى الصـلاة كما كانت سنة النبى صـلى الله عليه وسلم فـكان يفرج ما نزل به فى الحـال ويقضى ما قصـده بامتثال أمر الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وكان يكرم الجار غاية ويراعى حرمته وحقوقه على أى حالة فلقد كان له جارمفرطالجهل والاسراف على النفس مع التكبر على الله تعالى وعلى عباده الصالحين فلا تلين قناته لأهل الفضل والدين ولا يظهر لهم ميلا ولا احتراماً كأنه غنى عن رحمـة الله تعالى . ومن جهله المفرط أنه بلغ السبعين من العمر وما سجد لله سجدة قط ، فقال له بعضهم يوماً ألا تصلى ، فقال نحن ما كنا نلعب صغاراً فضلا عنا ونحن كبار . وبالجملة فـكان فى منتهى الجهل والجفاء والاسراف كماتقتضيه طبيعةأرضه لأنهمن ذوى بيوتها . فـكان الشيخ رضى الله عنه يكرمه على هذا الحال ويراعى حق جواره لأنه كان ملاصقاً له . ولمـا توفى خرج لحضور جنازته والصلاة عليه بباب الدار مع أن الفقهاء يكرهون الصلاة لمن هو دون الشيخ على من هو أحسن حالا من هـذا الجار سامحنا الله وإياه وعاملنا جميعاً بفضله ورحمته .

وكان ينخدع لمن خدعه ولو كان خداعه من البين الواضح المـكشوف فـكان جماعة من أتباعـه وفقرائه يبغضون أولاده وأقاربه بحكم طبيعة البلد التى ينبت ماؤها وهواؤها الحقد والحسد فى القـلوب كما ينبت المـاء البقل

والربيع وكانت تحصل منهم إذاية عظيمة وإهانة كبيرة لا يتحملها بشر لأولئك الأقارب والانجال ثم يأتى أحدهم الى الشيخ رضى الله عنه يريد خداعه والتلبيس عليه قائلا إنى فعلت مع الشريف الفلانى كذا وكذا من سب وإهانة واحتقار وأخذ حق ومال ، وما قصدى بذلك الا تعظيم جنابكم وتبرئة ساحتكم لأنى رأيت منه مالا يليق بمقامه ومقامكم فيعلم الشيخ أنه كاذب فى دعواه وأن الذى حمله على ذلك فرط حقد وحسد فى قلبه وحب انتقام من أهل الفضل والدين ولكنه يظهر له الفرح والسرور ويقول جزاك الله خيرا ويمدحه على فعله ذلك ويطريه حتى يذهب الأحمق المغرور وهو ظان أن خداعه قد راج على الشيخ بل لا يكتفى بذلك حتى يعتقد أنه على حق وصواب وفضل كبير كما حلاه به الشيخ الذى قد عرف قصده وتحقق من كذبه ليس فى مرة واحدة فقط بل والله فى مئات المرات وقد يستدعى الشيخ رضى الله عنه ذلك المظلوم المعتدى عليه من ذلك الجاهل المجرم فيوصيه بالصبر والاحتمال ويقول له أنا متحقق من أنك مظلوم برىء مما نسبه اليك فلان وأنا أعرف قصده من ذلك ولكن حيث وقعنا معهم وابتلانا الله بصحبتهم فلا حيلة لنا الا احتمال أذاهم والصبر عما يأتينا من إذايتهم كما أمرنا الله تعالى وما هى إلا أيام قليلة يصبر فيها المرء ثم يعاجله الله تعالى بالنصر والفرج على عدوه وإن أحياك الله تعالى فسترى من أعدائك ما يسرك إن امتثلت أمر الله فيهم بالصبر والاحتمال وعدم المقابلة بالمثل وقد وقع والله كل ما قال وظهر ظهور الشمس فى رابعة النهار ولا يزال يظهر وينمو حتى يصل المنتهى والحمد لله رب العالمين .

وكذلك كانوا يخدعونه من جهة المال والتوسط فى الحصول عليه بضمانة ووساطة ونحو ذلك بأعذار وكلمات ظاهرها حق وصدق وباطنها غش وخداع فينخدع لهم ويوصلهم الى ما أرادوه مع تصريحه لبعض خواصه

فى كثير منهم أنه يعلم كذبهم وعزمهم من أول مرة على أكل المال وعدم رده إلى أربابه ليدفعه الشيخ من عنده ولا يحصى من كان يعامله بمثل هذا وهم على قسمين . منهم من كان يعتقد أنه لحذقه وذكائه يخدع الشيخ ويغره اسلامة صدره وصفاء طويته . ومنهم من كان متحققاً بأن الشيخ غير مخدوع فى الواقع وإنما يتظاهر بأنه قد انخدع لارضاء الخادع ومع ذلك فكان يعامل الشيخ بطريقة المكر والخداع لغلبة ذلك على طباعهم مع قلة حيائهم .

وقد روى البخارى فى الأدب المفرد وأبو داود والترمذى والحاكم والبيهقى وغيرهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم » يعنى ان المؤمن المحمود فى الفعال والخصال من كان طبعه الغرارة وقلة التظاهر بالفطنة للشر وترك البحث عن الأمور وليس ذلك منه جهلا وغباوة بل تجاهلا وتسامحا لكرم أخلاقه وحسن طباعه . والفاجر من أخلاقه الخبث والدهاء والتوغل فى معرفة الشر والحذر لدناءة طبعه ولسوء أخلاقه وفقده الكرم من نفسه .

قال بعض العارفين كن عمرى الفعل فان الفاروق رضى الله عنه يقول : من خدعنا بالله انخدعنا له . فاذا رأيت من يخدعك وعلمت أنه مخادع فمن مكارم الأخلاق أن تنخدع له ولا تفهمه أنك عرفت خداعه . فاذا فعلت ذلك فقد وفيت الأمر حقه لأنك إنما عاملت الصفة التى ظهر لك فيها والانسان إنما يعامل الناس لصفاتهم لا لاعيانهم فاذا عاملته بما ظهر منه كنت مؤمناً حقاً . والمؤمن غر كريم لان خلق الايمان يعطى المعاملة بالظاهر اه .

وقد نص العارف الشعرانى فى الأخلاق المتبولية على أن هذا من أخلاق العارفين وكمل الرجال كما نقلته فى الأصل . وعلماء الوقت يسمون مثل هذا مغفلا وعبيطاً جهلا منهم بالسنة وإعراضا عن العمل بها . نسأل الله السلامة والعافية بمنه .

فصـــــل

وكان يضع السبحة فى عنقــه إذا خرج ويمسك بيــده العصا الطويلة المستقيمة ذات الزج كما هى سنة الأنبياء عليهم السلام وورثتهم من الصوفية العرفاء رضى الله عنهم لا العصى القصيرة المكوفة الرأس كما يمسكها علماء مصر بيدهم زينة وتـكبراً وافتخاراً وتشبها بالنصارى لانها من سنتهم التى تبعهم فى جميعها علماء مصر ، نسأل الله اللطف والعافية .

وكان فى بداية أمره يجهر بذكر الله فى الشوارع ويأمر بذلك الفقراء كما كان يأمرهم بحفظ القرآن وتعاهد دراسته وتلاوته .

وكان يحث الفقراء وطلبة العلم منهم ومن غـيرهم على الاشتغال بالحرفه وتعلمها والتـكسب بها وبالتـجارة ويقبح لهم البطالة جـدا ويبالغ فى ذمها وذم الـكسل والاتـكال على الناس . ويقول ان ترك الحرفة والتجارة يؤدى بالطالب والفقير الى أن يأكل بدينه أو يتذلل لاهل الدنيـا أو يدخل فى الوظائف الحـكومية مثـل القضاء والشهادة ونحوهما ممـا يهدم الدين جملة ويقضى عليه بالـكلية . ويقول لان يبيع طالب العلم الفحم والنعناع فى الشوارع خير له من الدخول فى القضاء والشهادة .

وكان كثير الاهتمام بأمر العامة شديد الشفقة عليهم قد بذل كل ما فى وسعه وطاقته لنفى الشر عنهم والتوصل إلى أسباب انقاذهم ممـا هم فيه . فلما أعياه أمرهم وعلم أن مراد الله منهم ما هم فيه أقبل على شأنه وأمر الفقراء المتجردين فى الزاوية بادامة قراءة ســورة يس صباحا مع الوظيفة بنية الفرج على الامة ودفع البلاء عنها . وبذكر اسمه تعالى اللطيف كل ليلة لهذا الغرض أيضا وترك ما كان يسعى فيــه من الاســباب الحسية الظاهرة لذلك لبلوغه مقام الـكمال فى المعرفة بالله تعالى .

فقد ذكر العارف الشعرانى فى الفلك المشحون أن من أخلاق الكمل من العارفين عمل أحدهم على تحصيل مقام عدم الاهتمام بأمر المسلمين وعدم مشاركتهم فى همومهم اكتفاء بتدبير الحق لهم ورحمته بهم وشفقته عليهم لا استهانة بحقوقهم وذلك بعد عملهم على مقام مشاركتهم فى كل هم وغم حتى بلغوا الغاية فى ذلك ودليلهم فى الشق الاول العمل بباطن حديث «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» بعد عملهم بظاهره وهو مقام عزيز قل من يتنبه له من الفقراء وإيضاح ذلك أن هذا الحديث يحتمل أن يكون المراد به أنه ليس منهم على وصف الذم ويحتمل أنه ليس منهم على وصف المدح كما هو شأن الكمل من الاولياء لان أحدهم قد ارتفع عن مقام الاسلام والحجاب الى مقام الاحسان والايقان فضلا عن مقام الايمان يشهد أن الله ما ابتلاهم إلا لحكمة بالغة إما ليؤدبهم بذلك أو ليكفر عنهم سيئاتهم أو يرفع بذلك درجاتهم وصاحب هذا المشهد لا يكاد يهتم لاحد من المسلمين الا بالجزء البشرى الذى يدق فيه . وكأن وجوده عدم ثم أطال النقول فى هذا المعنى عن شيوخه كسيدى على الخواص وشيخ الاسلام زكريا الانصارى وسيدى أفضل الدين وسيدى على المرصفى بما فيه لطائف وفوائد لا تخطر ببال محجوب فارجع إليه فانه نفيس جدا . وذلك بالباب الخمسين من الكتاب المذكور فكان الشيخ رضى الله عنه فى بداية أمره يعمل بظاهر الحديث المذكور ويهتم بأمر المسلمين اهتماما ماراه الراؤون من أحد من أهل عصره لا سيما العلماء ودام يسعى فى ذلك أزيد من خمس عشرة سنة بما يطول شرحه ولا يساعد الوقت على ذكره ثم صار فى نهايته يعمل بباطن الحديث أيضا فسلم الامر لله وصار يترقب مايبرز من الحضرة الالهية دون وساطة بشر أو سعى مخلوق .

وكذلك صار فى آخر عمره لا يتكدر مما عليه الناس من كثرة المعاصى والمخالفات . ولا يتأسف على ذلك ولا يكثر من ذكره الا على سبيل القلة

والندرة بخلاف ما كان عليه فى بداية أمره فانه كان كثير التعرض لذلك فى دروسه وخطبه ومجالسه بقصد تغيير المنكر والتنبيه عليه وذلك أيضا من كمال المقام فى المعرفة وهو مقام عدم الاعتراض على شىء من الاقدار الالهية ولو خاطراً كما ذكر العارف الشعرانى . قال وهو مقام عزيز لا يثبت فيه إلا من أطلعه الله تعالى على اللوح المحفوظ وعرف ما سبق به العلم الالهى . فهناك يذهب الاعتراض منه جملة ببادىء الرأى وصاحب هذا الاطلاع يعرف أن ما سبق به العلم الالهى لا يطلب تغييره لكونه على أعلى مراتب الكمال كما أشار الى ذلك الغزالى رحمه الله تعالى بقوله : ليس فى الامكان أبدع مما كان أى لأن جميع ما برز فى الوجود ما برز الا على أكمل مراتبه التى سبق بها العلم عند هذا المكاشف فكيف يقع منه اعتراض وهو يشهد أن ما برز فى الوجود أكمل مما يطلبه هو بعقله .

وسمعت سيدى علياً الخواص رضى الله عنه يقول من علامة صدق من اطلع على ما سبق به العلم الالهى فى اللوح المحفوظ أن لا يأمر الناس ولا ينهاهم الا بقدر ما فيهم من الجزء البشرى الذى هو مناط التكليف لا يزيد على ذلك ذرة ولا ينقص وان وقع أنه مدح من زاد على غيره فى الطاعات أو ذم من زاد على غيره فى المعاصى فانما هو من حيث الجزء البشرى كذلك انتهى وإلا فشهد صاحب هذا المقام أن العبد لا يقدر أن يزيد ولا ينقص مما قدر له أو عليه . ثم أطال النقول فى ذلك وهو مقام الشيخ رضى الله عنه ومشهده لأنه كان يقول لبعض من تقع منه المخالفات من خواصه استتر بستر الله ولا تبد شانك للناس فانهم لا يعذرونك ولا عليك من اطلاعنا فانا نعرف مراد الله منك ولا نلومك على شىء صدر منك حتى يكون الله تعالى هو الذى يظهر فيك مراده .

وسمعته مرة يقول لبعضهم : والله لو دخلت على سكران تمايل ما تغيرت منى شعرة واحدة عليك وأنا أعلم ما فى الأمر وما هو الواقع ولذلك كان

ستيراً على أهل المعاصى باراً بهم كما قدمناه .

وكذلك كان فى بدايته يكثر التعبد ويتقشف على قدر حال الوقت ثم فى نهايته ترك ذلك وصار لا يزيد على الفرائض فى الصلاة والصيام وربما صام يوم عرفة ونصف شعبان فى بعض الأعوام الا قيام الليل فانه لم يتركه أصلا وما كان يأتى عليه ثلث الليل الأخير الا وهو قائم وربما قام فى منتصف الليل وهذا أيضاً من كمال المقام فى المعرفة بالله تعالى كما هو معروف عند أهله .

وكان يفرح بكثرة كلام الناس فيه ويضحك اذا سمع الجرائم العظام التى ينسبها اليه أهل بغضه وعداوته ويبالغ فى إكرام من يرد عليه من المتكلمين فيه . وقد رأى بعض الشيوخ الصالحين من أهل فاس للشيخ رضى الله عنه مقاماً عظيما فسأل عن سبب وصوله اليه فقيل له كثرة كلام الناس فيه وهذا أيضاً من أسرار اختياره السكنى بطنجة والله أعلم .